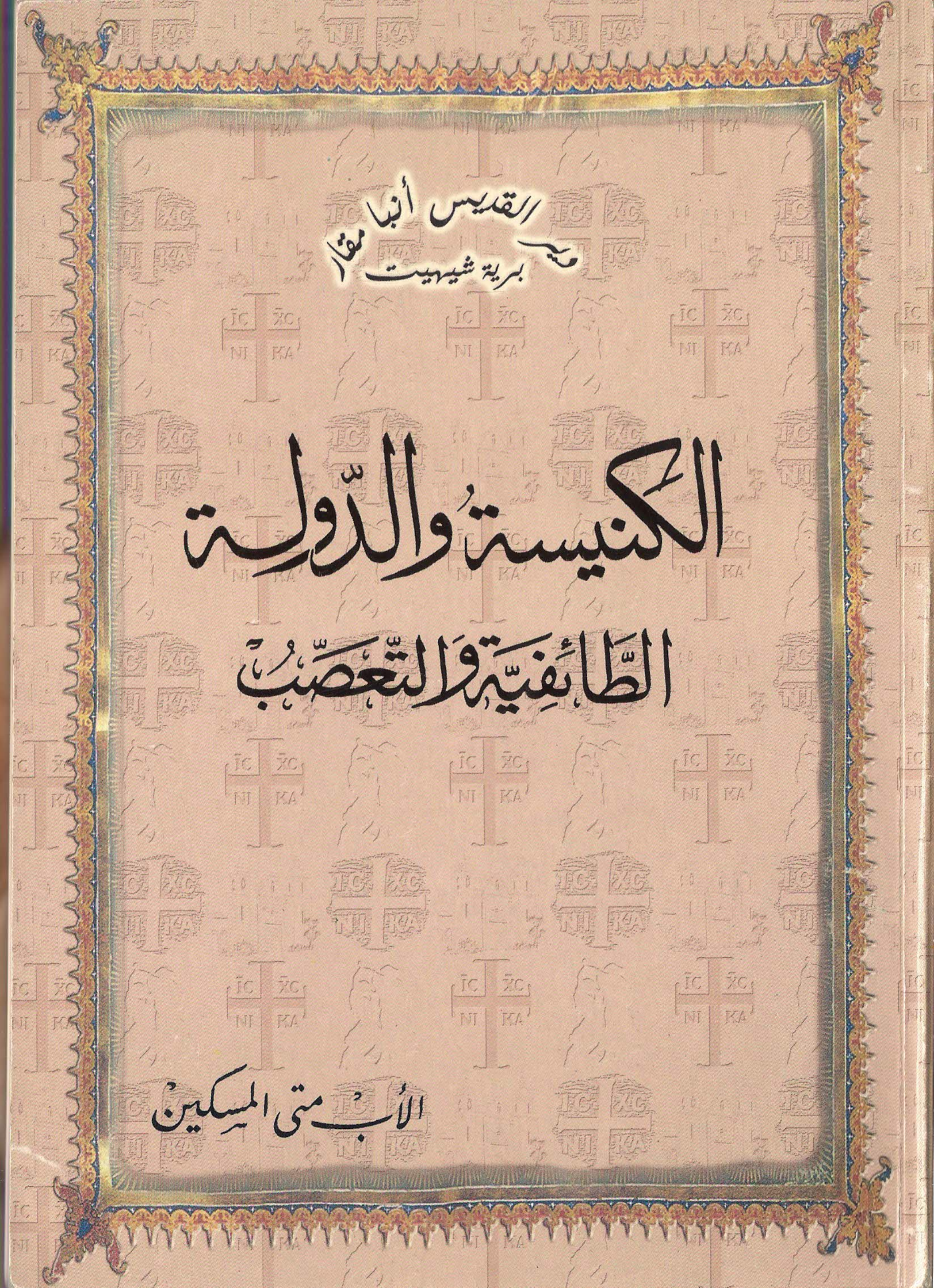


القديس أنبا مقار
برية شيهيت
الكنيسة والدولة
الطائفية والتعصب
الأب متى المسكين

دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

الكنيسة والدولة

الطائفية والتعصب

الأب متى المسكين

كتاب: الكنيسة والدولة
مقال: الطائفية والتعصُّب
المؤلِّف: الأب متى المسكين
الطبعة الأولى: كتاب "الكنيسة والدولة" ١٩٦٣.
مقال: "الطائفية والتعصب" نُشر في لبنان نوفمبر ١٩٦٩.
المقالان ضمن كتاب "مقالات بين السياسة والدين": الطبعة الأولى: ١٩٧٧.
الطبعات التالية ١٩٧٩، ١٩٨٧، ١٩٩٧، ٢٠٠١، ٢٠٠٦
الطبعة السابعة: ٢٠٠٩م.
مطبعة دير القديس أنبا مقار – وادي النطرون
ص. ب ٢٧٨٠ القاهرة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١١٤٥٥ / ٢٠٠٦
رقم الإيداع الدولي: 5-250-240-977

متى المسكين، ١٩١٩-٢٠٠٦

الكنيسة والدولة الطائفية والتعصب / متى المسكين. – ط٠٦ – وادي النطرون: دير القديس أنبا مقار برية شيهيت، ٢٠٠٦.

٨٠ ص؛ ٢٠ سم.

تد مك ٥ ٢٥٠ ٢٤٠ ٩٧٧

١ – اللاهوت المسيحي الاجتماعي

أ. العنوان ١,٢٧٦

المحتويات

الجزء الأول

الجزء الثاني

الجزء الأول

الكنيسة والدولة

(١)

اختصاصات المسيحية

المسيحية زاخرة بالتعاليم والتوجيهات والإرشادات على مستوى التجربة الحية والواقع المثبَّت بالمعجزة، وهي أيضاً مملوءة بالأمثلة والنماذج الناطقة بالمحبة والتفاني من أجل الإيمان وكلها آية لعزاء المجاهدين، كذلك تمتاز المسيحية بالاتصالات الخاطفة مع العالم الآخر فالإنجيل مشحون بالرؤى والأحلام والأصوات السماوية.

ولكن بالرغم من هذا التنوع الفريد في منهج المسيحية الشامل إلا أننا نستطيع بلمحة خاطفة أن ندرك أساس هذا المنهج الشامل ونرده كله إلى ثلاثة أبعاد تحدِّد اختصاص المسيحية.

البعد الأول:

وهو **موضوع المسيحية**، أي لِمَنْ جاء المسيح؟ وسنعرف أنه جاء من أجل الخطاة.

البعد الثاني:

وهو **هدف المسيحية**، أي ما غاية المسيح من خلاص الخطاة؟ وسنعرف أن الغاية هي أن يدخلوا ملكوت الله.

البعد الثالث:

وهو وسيلة المسيحية، أي ما هي الطريقة لخلاص الخطاة؟ وسنعرف أنها المناداة الحرة للتوبة لتجديد الإنسان.

والغرض من تحديد الأبعاد الأساسية في المسيحية هو معرفة اختصاص المسيحية كديانة تحتاج إلى خدمة وكرازة، وبالتالي معرفة اختصاص الكنيسة بصفتها مسئولة عن المسيحية.

ثم على ضوء معرفة اختصاصات الكنيسة نبحث في حدود نشاط الكنيسة بالنسبة للدولة. والغاية من معرفة حدود نشاط الكنيسة بالنسبة للدولة هي أن يعرف المواطن المسيحي ما له وما عليه تجاه الكنيسة والدولة.

أولاً: البعد الأول في اختصاصات المسيحية: أي لِمَنْ جاء المسيح ؟

قال السيد المسيح: « لم آتِ لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة» (مر ٢: ١٧).

فأوضح بذلك المهمة العظمى التي جاء من أجلها وحدد موضوعها، وسوف نرى أن الحكمة في اختيار الإنسان الخاطئ ليكون موضوع المسيحية ورسالتها أمر من أخطر الأمور بالنسبة لمصير الإنسان.

ويمكن أن يُقال إن المسيحية تهتم بالإنسان من جهة خطيته. الخطية مدخل المسيحية للإنسان ومنه تنفذ إلى أعماقه لتجذبه من هناك من اليأس والألم والظلمة إلى النور والقداسة ومعاينة وجه الله.

المسيح جاء من أجل خطية الإنسان ليرفعها لأن في رفعها عودة إلى

الله وعودة إلى سعادته الروحية الحقة.

«هكذا يكون فرح في السماء بخاطئ واحد يتوب» (لـو ١٥: ٧). والمسيح يحزن إذا لم يحس الإنسان بخطيته لأنه كيف يتوب وكيف يعود؟

إذا أسعدنا الإنسان بكل صنوف السعادة الدنيوية حتى لم يعد يحتاج إلى شيء وظلت الخطية فيه دون أن يرفعها المسيح، فهو سيفقد سعادته سريعاً وسيخسر نفسه «وماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟» (مت ١٦: ٢٦).

من هذا يظهر أن انحصار المسيحية في هذا الموضوع المحدد: "خلاص الخطاة" – خطير في الواقع، لا بالنسبة لمَنْ يريد أن يُقبل إلى المسيحية فحسب بل ولكل مَنْ يحيا فيها لأنه إن لم يقر الإنسان بخطيته لا ينال الخلاص. وعبثاً يحاول الإنسان أن يتلاقى مع المسيح إلا من هذا الباب! وعبثاً يحاول الكارز أن يكرز إن لم يشعر في قلبه أنه "كأول الخطاة" يكرز للخطاة، وأنه كما رحمه الله هكذا ينادي برحمة الله «لهذا رُحمت ليُظهر يسوع المسيح فيَّ أنا أولاً كل أناة مثالاً للعتيدين أن يؤمنوا به للحياة الأبدية» (١تي ١: ١٦).

إن أخطر عدو يهدد كيان المسيحية بالانحلال هو أن يهتم الكارزون في الكنيسة بموضوع آخر غير "خطية الإنسان" فيتركوا عنهم دعوة المسيح للخطاة التي كانت مهمته الأولى والعظمى وينشغلوا بالإنسان من جهة حياته الاجتماعية. هذا ليس خروجاً عن المسيحية فحسب ولكنه مقاومة. وسوف نرى صحة ذلك:

نقرأ لبولس الرسول هذه الآية: «صادقة هي الكلمة ومستحقة كل

قبول أن المسيح يسوع جاء إلى العالم ليخلّص الخطاة الذين أولهم أنا» (١تي ١: ١٥).

ويُلاحَظ أن الآية تحمل تأكيداً مكرراً «**صادقة هي الكلمة، ومستحقة كل قبول**».

ولكن بولس الرسول لا يكتفي بالتأكيد المكرر للحقيقة المسيحية «أن المسيح يسوع جاء إلى العالم ليخلّص الخطاة» بل يعود ويوصي تلميذه أن يعتني بهذه الوصية بصفة خاصة اعتناءً شديداً وإن لزم الأمر فليحارب من أجلها.

+ «هذه الوصية أيها الابن تيموثاوس أستودعك إياها حسب النبوات التي سبقت عليك **لكي تحارب فيها المحاربة الحسنة** ولك إيمانٌ وضميرٌ صالحٌ» (١تي ١: ١٨).

إذن فالأمر في نظر بولس قد بلغ حد الخطورة، فلماذا؟

لقد استطاع بولس الرسول ببصيرته الروحية النافذة أن يكتشف الضربة الموجهة للمسيحية، فلقد قام معلمو الناموس ينادون في أفسس أن الديانة ليست للخطاة[1].

كان في هذا إنهاء للمسيحية. لذلك اعتبرها بولس بالنسبة للكنيسة إعلان حالة حرب! فإما يكسب المسيحية للخطاة وإما تموت الكنيسة كما ماتت الديانة اليهودية على أيدي الفريسيين أنفسهم. فحارب أو كما يقول هو «حاربت وحوشاً في أفسس» أو حارب حرباً وحشية لا

(١) انظر الأصحاح الأول من رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس.

هوادة فيها فناله ما ناله ولكنه انتصر وعاشت الكنيسة وعاشت المسيحية كديانة "لخلاص الخطاة". شكراً لله!

ولكن المسيحية تتعرَّض في هذه الأيام لنفس المحنة، والكنيسة تواجه نفس الضربة لأن بعض الكارزين يحاولون الآن الخروج بالمسيحية عن موضوعها بسبب انعدام قدرتهم على الكرازة بالتوبة لتجديد الإنسان وخلاصه. وإن الخسارة التي ستجنيها الكنيسة من جراء ضم مواضيع جديدة للكرازة سوف تنتهي أخيراً بانطفاء سراج المناداة بالتوبة لخلاص الخطاة الذي ظلّ ينير الكنيسة ويضم لها كل يوم الذين يخلصون. الأمر الذي كان يخشاه بولس الرسول والذي من أجله حارب وحوشاً في أفسس وجاهد وغلب. ثم تركه وديعة لتلميذه تيموثاوس ليحارب حروب الرب من أجله أيضاً ويسلمه تراثاً أبدياً للكنيسة.

⊙ ولكن الكارزين في هذه الأيام فقدوا الطريق الموصل لقلب الإنسان فأخذوا يدورون حوله إلى ما لا نهاية.

⊙ والمفتاح المقدس الذي سلَّمه الرب للكنيسة ليدخلوا به إلى قلب الخطاة ضاع والمفتاح كان المناداة بالتوبة.

لقد يئس الخاطئ وتبلَّدت نفسه وكرهت روحه الحق.

ثانياً: البعد الثاني في اختصاصات المسيحية:

أي ما غاية المسيح من خلاص الخطاة؟

هي أن يدخل الإنسان ملكوت الله. كانت أمنية المسيح الكبرى: «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا لينظروا مجدي الذي أعطيتني» (يو ١٧: ٢٤). وأن يأتي ملكوت الله

ليحل في قلوب الناس كان محور تعاليم المخلِّص. انظر كيف جعل كل صلاة نصليها نطلب فيها أن يأتي ملكوت الله؟ «ليأتِ ملكوتك».

الإنسان كان متغرِّباً عن الله بسبب الخطية، والمسيح جاء ليرفعها حتى يعود الإنسان إلى أبيه السمائي! «أبانا الذي في السموات ... ليأتِ ملكوتك!» (مت ٦: ٩ و١٠).

ملكوت الله ليس ملكوتاً زمنياً فلا نترقَّب مجيئه عبر الزمان، هو موجود دائماً والحاجة هي أن نكتشفه، نكتشفه داخلنا، «ها ملكوت الله داخلكم».

ملكوت الله ينمو في القلوب المستعدة، شيئاً فشيئاً، بواسطة كلمة الإنجيل إذا استطاع القلب أن يحتفظ بها ويقدِّسها، بعكس القلب الجاهل «كل مَنْ يسمع **كلمة الملكوت** ولا يفهم فيأتي الشرير ويخطف ما قد زُرِعَ في قلبه» (مت ١٣: ١٩).

السيد المسيح فلَّح قلب الإنسان ليقبل بشارة الملكوت المفرحة فكان يعلِّم في كل مكان بكل جهد «وكان يسوع يطوف المدن كلها والقرى يعلِّم في مجامعها ويكرز ببشارة الملكوت» (مت ٩: ٣٥). وتعليمه لم يكن كالكتبة والفريسيين ولكن كمَنْ يرى الحق قبل أن ينطقه وكشاهد عيان كان يتكلَّم عن الملكوت.

⊙ المسيح لم يهتم أبداً كيف يرتب حياة الخاطئ لمَّا يتوب، أو يُشرِّع قوانين مدنية، ولا اهتم الرب كيف يسعد الإنسان التائب بأمور الدنيا ومسرات هذا الدهر حتى يعوضه عن بؤسه السابق. المسيح لم يَعِدْ الخطاة التائبين بشيء من مُلْك هذا العالم بل ثبَّت قلب التائب نحو مُلْك السماء،

وأنذره أن الطريق إلى هناك ضيق وشاق وسيصادفه حتماً ذُلٌّ وعنت واضطهاد، ووعده أنه ليس له مؤونة تعزية على مدى سفره الطويل إلا فَرَحه بأن اسمه قد كُتب في سفر الحياة.

لم يجمع السيد قط ولم يخلط أبداً بين مملكة الله ومملكة هذا الدهر، نقرأ عنه أنه «إذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكاً، انصرف ... وحده» (يو ٦: ١٥).

⊙ محاولة الكنيسة الاهتمام بالأمور الزمنية باسم المسيح هو بمثابة تنصيب المسيح ملكاً على الأرض.

⊙ محاولة تقوية سلطان الكنيسة الزمني والمطالبة بحقوق للجماعة هو رجعة لإقامة مُلك المسيَّا كما كان يحلم به اليهود.

حينما يتصفَّى فكر الكنيسة من كل أطماع الدنيا، وتنفض عنها الحقوق المطلوبة والحقوق المسلوبة حينئذ ستتذكر قول سيدها: «**مملكتي ليست من هذا العالم**» (يو ١٨: ٣٦).

وحينما تفقد الكنيسة كل شيء وتفتقر مثل سيدها إلى "إستار" واحد تدفعه جزية، حينئذ تسترد سلطان الروح المفقود ويملك عليها الله: «فقال بطرس ليس لي فضة ولا ذهب» (أع ٣: ٦).

⊙ المفتاح الكبير الذي سلَّمه الرب للكنيسة لتفتح به ملكوت السموات للخطاة، أينما شاءت وكيفما شاءت، فقدته، لقد ضاع المفتاح الكبير لما انشغلت الكنيسة بأموال الدنيا وأملاك العالم وتلاهت عن خلاص الخطاة. نعم لا يستطيع الإنسان أن يعبد ربَّين ولا أن يخدم سيدين.

ثالثاً: البعد الثالث في اختصاصات المسيحية:

أي ما هي الوسيلة لخلاص الخطاة؟ لقد رسم السيد الطريق وحدَّد الوسيلة ولا مجال لنقص أو زيادة «من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول **توبوا** لأنه قد اقترب ملكوت السموات» (مت ٤: ١٧).

وواضح أيضاً أنه ما دام اختصاص المسيحية هو "خلاص الخطاة" تكون وسيلة الخلاص فيها هي التوبة.

إذن، ليس من باب آخر خلاف التوبة يمكن أن يفوز منه الخاطئ بالخلاص. والخلاص والغفران يهبهما المسيح حتماً لكل التائبين إليه. ومعروف طبعاً أن التوبة تنتهي بالتجديد الكامل بعمل دم المسيح. الخطاة المُقبلون إلى التوبة هم عمل المسيح وثمرة آلامه لذلك هم بهجة قلبه. لذلك حينما تنادي الكنيسة بالتوبة، ويعود العصاة إلى فكر الأبرار، تكون الكنيسة قد أدت عملها وأكملت شهادتها لأن عودة الخطاة هي تسبحتها الكبرى، وتوبة العصاة هي بخورها الذي تقدِّمه لعريسها لتكميل مسرَّة قلبه: «مِن تعب نفسه[2] يرى ويشبع» (إش ٥٣: ١١).

⊙ التوبة في معناها هي خضوع النفس لله لقبول المغفرة بدم المسيح.

⊙ علامة التوبة الظاهرة هي السجود، ولكل سجود قيامة.

⊙ كل مرة نسجد، نعترف بالخطية وننسحق ونسقط على الأرض لنعفِّر الجبين بالتراب كشبه المائتين، أو كشبه الذي مات من أجل خطايانا! وفي كل مرة نقوم نتقبَّل المغفرة من الذي أُقيم من أجل تبريرنا.

---

(٢) تعب الرب هو الفداء على الصليب.

⊙ لذلك صار السجود والقيام (الميطانيا) ذكرى دائمة لموت المسيح وقيامته وعلامة أبدية للتوبة إلى الله!

⊙ التوبة شغل الكنيسة الشاغل لأنها رسالتها. فإذا رفعنا المناداة بالتوبة من الكنيسة لا يتبقى لها عمل آخر.

لأن عمل المسيح الأصيل كان محصوراً في المناداة للخطاة بالتوبة، وعلى الصليب أكمل وسيلة الغفران والخلاص بسفك دمه.

إذا رفعنا عمل المناداة بالتوبة للخطاة من حياة المسيح، إذن لَبَطُلَ الصليب وضاعت قوته.

ولو دققنا في التراث المسلَّم لنا من الآباء، لوجدنا أن ما من عمل يتم في الكنيسة إلا وأساسه أصلاً تكميل التوبة لضمان الخلاص.

فإن كان هذا العمل هو معمودية أو مسحة الميرون فهو لمغفرة الخطايا ولتقديس التائبين.

وإن كان إقامة القداس الإلهي بكل ما يشمله من صلوات فهو ليعطي المغفرة والثبات للتائبين.

وإن كان هناك اعتراف ومسحة مرضى فهما سران لتكميل التوبة وقبول المغفرة.

وإن كان هناك تقديس زيجة فهو لضمان حياة التوبة.

وإن كان هذا العمل هو رسامة شماس أو كاهن أو أسقف فما ذاك إلا لكي يكرز بالتوبة بشبه المسيح.

وخارجاً عن التوبة لا يوجد عمل ولا خدمة داخل الكنيسة

وخارجها.

إذن فالمسيحية ذات اختصاص:

في موضوعها وهو الإنسان الخاطئ.

وفي هدفها وهو ملكوت الله.

وفي وسيلتها وهي المناداة بالتوبة.

لذلك فإن:

أولاً: من جهة موضوع الاختصاص:

أي محاولة لضم مواضيع أخرى إلى اختصاص المسيحية الذي هو "خلاص الخطاة" مثل محاولة الترفيه عن المؤمنين وإدخال السرور على قلوبهم بعرض الأفلام السينمائية وتوزيع الراديوهات على الأسر الفقيرة وخلق جو السعادة بإقامة نوادي الاختلاط للعائلات وتكوين نوادي رياضية واجتماعية وتوجيه الحياة الاجتماعية عند الشباب والعمال والدعوة لمعسكرات دولية للعمل والسمر وتبادل الخبرات وتكوين علائق جديدة بين الكنائس داخل القطر وخارجه على أُسس اجتماعية، كل هذا وغيره من مئات المواضيع التي تزخر بها الخدمة الاجتماعية والتي يمكن لأي موضوع فيها أن يبتلع الكنيسة ويُنسيها اختصاصها الأصيل: "خلاص الخطاة"، نقول إن كل هذا ليس من اختصاص الكنيسة، هي مواضيع خارجة عن موضوع الاختصاص، هي بمثابة برية التيه التي تاه فيها موسى وشعب الله في سفره إلى أرض كنعان.

ثانياً: من جهة هدف الاختصاص:

أي محاولة للجمع بين ملكوت الله كهدف اختصاص المسيحية مع أهداف أخرى مثل المطالبة بحقوق خاصة للكنيسة للاشتراك في الحكم أو في إدارة سياسة الدولة أو المطالبة بحقوق خاصة لتملُّك شيء من أمجاد هذه الدنيا أو السعي ليكون للكنيسة شيء من النفوذ أو السيادة، هذه المحاولة معناها الخروج عن هدف الاختصاص في المسيحية الذي هو ملكوت الله.

وليلاحظ القارئ أن الكنيسة إذا خرجت عن موضوع اختصاصها، أي خلاص الإنسان الخاطئ، فلابد أن تخرج عن هدف اختصاصها الذي هو السعي نحو ملكوت الله! لأنها كيف تنفق على المشاريع الجديدة المتعددة؟ إذن، لابد من المال، ومن أين يأتي المال إلا ببيع المواهب الإلهية؟ أو باستجداء المساعدات من الداخل والخارج؟

والعكس صحيح إذا تمسَّكت الكنيسة بهدفها أي السعي نحو ملكوت الله التزمت بالبشارة المجانية وارتبطت بالخطاة المتعطشين للتوبة.

السيد المسيح يؤكد أنه لا يمكن أن إنساناً يخدم سيدين «لا يقدر أحد أن يخدم سيدين، لأنه إما أن يُبغض الواحد ويحب الآخر أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر. لا تقدرون أن تخدموا الله والمال» (مت ٦: ٢٤).

ثالثاً: من جهة وسيلة الاختصاص:

إن أي استخدام لوسائل أخرى غير المناداة الحرة بالتوبة لدعوة الخطاة إلى الخلاص من خطاياهم هو عمل مستحيل. لأنه ليس خلاص إلا بالتوبة. وكل وسيلة أخرى مثل ترغيب الناس بالمال أو بالهدايا أو

بالأكل أو بالملابس أو بالمسليات، تُعتبر كلها وسائل غير مشروعة، وكذلك محاولة إغراء وشراء ضمائر الناس لله بأموالنا وحاجات الدنيا.

كذلك كل محاولة لاستخدام السلطان سواء كان سلطان الدين أو السلطان الزمني أو استخدام التهديد والوعيد أو استخدام العقوبة أو المقاطعة لإجبار الخاطئ على التوبة، فكل هذا السلطان يعتبر عمل اغتصاب وسلباً لمشيئات الناس واستعبادهم باسم الدين والكنيسة.

وهكذا تكون كل محاولة لكسب الإنسان الخاطئ إلى الله بطريق آخر غير الكرازة والمناداة الحرة لتوبة إرادية حرة، يُعتبر خروجاً عن وسيلة الاختصاص في المسيحية.

وإذا عُدنا إلى التاريخ نرى أنه على ممر العصور كانت الكنيسة ناجحة في تأدية رسالتها بقدر تمسكها بحدود اختصاصها، غير متأثرة بالظروف الخارجية سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية. ففي أحلك أيام التعصُّب والاضطهاد الذي بلغ إلى استشهاد اثنى عشر ألف نسمة في يوم واحد، وفي أعصب ظروف الاستبداد السياسي والعقائدي أيام حكم بيزنطة، بل وفي أشد أيام المجاعات والأوبئة لم تتخلَّف الكنيسة عن تأدية رسالتها وتكميل البشارة بالإنجيل لدعوة الخطاة إلى التوبة وربح أبناء جدد للآب السمائي.

وعلى العكس من ذلك يشهد التاريخ ويروي أنه كلما خرجت الكنيسة عن اختصاصات مسيحها وبدأت تنزع إلى السلطان الزمني وتجيِّش الجيوش باسم الصليب وزاغت وراء أموال الأغنياء وارتمت في أحضان أصحاب النفوذ وحاولت محاولات جدية وعنيفة للجمع بين

السلطان الديني والسلطان الزمني[٣]، ودأبت على المطالبة بحقوق عنصرية وطائفية، كلما فشلت المسيحية في تأدية رسالتها ودبَّ فيها الخصام والنزاع والوهَن، وفقدت شكل مسيحها كمنادية بالتوبة، وهكذا ضاع منها الخروف الضال. ولما انشغلت بأمجاد الدنيا، قُفل في وجهها باب الملكوت وصارت في حاجة لمن ينتشلها من ورطتها ويردها إلى حدود اختصاصاتها الأُولى.

(٣) كما حدث في العصور الوسطى في الكنائس الغربية. وقد اعتذر بابا روما السابق عن ذلك علانية.

(٢)

خدمة مسيحية لا خدمة اجتماعية

+ (العطاء وخدمة الفقير في المسيحية هما فعلان للإيمان بالمسيح)

الأصل في دعوة الرب لخدمة الفقير والبائس والعريان هو **الشهادة والإعلان عن شخص المسيح لهؤلاء الناس، وإنما على مستوى عملي.** لأن المسيح يلزم أن يكون محور كل عمل في المسيحية.

⊙ الذي يبشر بالمسيح يلزم أن يعطيه للناس أيضاً، والمسيح يُعطَى للناس بواسطة فعل المحبة، فالمحبة قادرة أن تنقل المسيح من قلب إلى قلب.

⊙ يلزم إذن أن تكون العطية في المسيحية صادرة من فعل محبة، أو بمعنى آخر يلزم أن تكون المحبة سابقة على العطية، ويلزم أيضاً أن تكون المحبة فائقة على العطية إلى الدرجة التي تكون فيها العطية ثمرة للمحبة، المحبة الأخوية للفقير والبائس والعريان. المحبة موجودة في كل الأديان لذلك فالعطاء موجود في كل دين، والعطاء فيها عشور الأموال. ولكن المحبة في المسيحية لا مثيل لها في أي دين **لأن المحبة التي عملها المسيح لا تسمَّى محبة إلا إذا كان يسندها استعداد للبذل والفداء حتى تسليم الروح.**

⊙ المحبة في المسيحية فاقت المادة وفاقت العالم بكل ما فيه لأن حدَّهما النهائي هو التسليم بالجسد وبالحياة في هذا العالم. لذلك فالعطاء في المسيحية ليس له حد. يُخطئ مَنْ يقول إنه عشور، يلزم أن يفوق العطاء

الأعداد ويسمو فوق جميع الأموال وفوق العالم والجسد لأن العطاء في المسيحية جوهره المحبة، وجوهر المحبة إلهي.

⊙ العطاء وبالتالي المحبة في المسيحية لا تقوم على دوافع أخلاقية ولا على دوافع اجتماعية، هذه ضلالة، إذ أن العطاء وخدمة الفقير في المسيحية هما فعلان للإيمان بالمسيح، ولا تفسير لهما إلا في حدود الإلهيات.

الله موجود في فعل العطاء وفعل خدمة الفقير كما هو موجود في فعل المحبة تماماً. المسيح علّمنا هذا أن شخص الفقير أو الجائع أو العطشان أو العريان أو الغريب أو المحبوس هو أخ لشخصه: «بما أنكم فعلتموه **بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم**» (مت ٢٥: ٤٠).

ولكن ليلاحظ القارئ أن السيد المسيح جعل نفسه باعتبار أنه هو الذي ينال منا العطية أو الأكل أو الشرب أو الكساء أو الضيافة أو الزيارة.

⊙ إذن ففعل العطاء في المسيحية إلهي من جهتين:

– **من جهة الدافع** أي المحبة التي هي في أصلها إلهي.

– **ومن جهة شخص المعطَى له** أي الفقير والبائس والعريان لأن المسيح يرتاح حينما يرتاح الفقير. إذن أين أسلوب الخدمة الاجتماعية؟ قد انتفى وأبطلته المسيحية فضاع مدلوله.

⊙ الكنيسة لا تخدم المجتمع، بل الكنيسة تخدم الإيمان، وتخدم المسيح في أشخاص هؤلاء العرايا والأذلاّء والمشرَّدين.

إن شخص المسيح هو الذي يتقبل لمسات أيدينا الحانية على جروح البشرية. الرب هو الذي يتقبل من أيدينا العطايا القليلة والكثيرة بابتسام، إنه يفرح حقاً. ولكنه لا يفرح أكثر مما يفرح الفقير حينما يتسلَّم من يديك العطية! فبقدر ما يفرح هذا المسكين بقدر ما يفرح الله في السماء. هي خدمة إلهية، هي خدمة المسيح، هي خدمة مسرة الله. متى تفيق الكنيسة من أسرِ مفاهيم الخدمة الاجتماعية؟

الخدمة المسيحية هي إلهية في دوافعها، إلهية في طبيعتها، إلهية في أهدافها، وهي حينما تخدم الفقير لا تهدأ حتى تجعل هذا الأخ الصغير للمسيح، عضواً حياً مكرماً في أسرة البشرية، أخاً بمعنى الكلمة ليرث هنا مع البنين في أموالهم كما سينال هناك ميراثه السماوي كابن مع البنين في مُلك الله.

⊙ **الخدمة المسيحية الحقة لا تكتفي بمجرد الإحسان ولكنها تؤمن بالأخوَّة ثم بالشركة** لأنه إن كنا سنرث جميعاً كإخوة في ملكوت الله فلا يليق أن نوجد هنا غير متآخين بالمحبة بعضنا يجوع وبعضنا يستفضل، بعضنا عُراة وبعضنا يدَّثر بالصوف ويتنعم بالحرير، بعضنا لا مأوى له إلا المستوقدات والخرابات وتحت السلالم وبعضنا ينفرد بالقصور.

إن نجاح الكنيسة إذا كانت كارزة حقاً بملكوت الله وبالتوبة يظهر عملها هنا في عمل التآخي بين الوارثين بروح المسيح. ولكن إذا كانت تكرز بالخدمة الاجتماعية فلن تبلغ شيئاً.

فلو خلت خدمة الفقير من هذا المضمون الكرازي الروحي فإنها تصبح عملاً كل ما يحتاج إليه لكي يتم هو كمية من المال، موزعة

في الكشوف على عدة أسماء، سبق أن فحصها خادم آخر أو موظف بناء على بعض أسئلة مباشرة للأسرة وتحريات.

ويتقبل الفقير الحَسَنَة من يد الخادم الاجتماعي بشيء من التذمر إذ يشعر أنها من فضلات القوم، فتزيده المساعدة تبرُّماً من فقره وحقداً على الأغنياء وسخطاً على هؤلاء الخدام الوسطاء أيضاً. ولا يستطيع الخادم إلا أن يبادله سخطاً بسخط، **وتنتهي الخدمة الاجتماعية كعملية استفزاز متكررة للفقير لتذكيره بفقره دائماً وبغنى الآخرين! أما الخادم المسيحي فهو يعرف هؤلاء الأصاغر بأسمائهم**، وقد نقشهم على قلبه من دوام ذكر أسمائهم في الصلاة أمام الله، إنهم إخوة المسيح والمسيح مُتصوِّر فيهم.

الخادم المسيحي لا يهتم أن يكون له مصادر ثابتة للمال في خدمته فالرب يرسل في حينه، ولكنه يهتم دائماً وبصفة جدِّية بنفسه وبداخل قلبه حتى تكون خدمته عن فرح ويكون استعداده للبشارة بالخلاص والغِنَى الحقيقي حاضراً كل حين! لأنه إذا لم نسعد الفقير فبماذا ينفعه الغِنَى؟ وإذا لم نجعله يذوق حلاوة العشرة مع المسيح فما قيمة الأطعمة الشهية؟ أو ما قيمة زيارتنا للمسجون في سجنه وتقديم جميع المسليات والمجاملات له ونحن غير قادرين على تعزيته بكلمة الإنجيل؟ وحتى إذا كان الخادم المسيحي للفقير فقيراً لا يملك شيئاً أو يملك شيئاً ضئيلاً سيظل في إمكانه أن يقول: «ليس لي فضة ولا ذهب، ولكن الذي لي فإياه أعطيك: باسم يسوع المسيح»[٤].

---

(٤) أع ٣: ٦.

⊙ إذن ليست الحاجة إلى العلوم والشهادات لتكميل خدمة الفقير والبائس والعريان. ولكن الحاجة هي أن **يكون قلب الخادم قد سكنت فيه كلمة الإنجيل** بغِنًى فامتلأت بالمحبة، ويكون **ملتهباً بالروح** لابساً المسيح حتى يستطيع أن يكسي العراة ويغطي الخطاة! وأن يكون متغرباً بقلبه عن أمجاد الدنيا حتى يستطيع أن يصاحب الأذلاَّء ويستضيف الغرباء. وأن يكون حُراً للمسيح حتى يستطيع أن يرثي للمحبوسين وينادي للمأسورين بالإطلاق. وأن يكون طاهراً عفيفاً مشهوداً له بالروح حتى يستطيع أن يفتقد الأرامل والأيتام بروح الديانة النقية الطاهرة عند الله الآب.

ولكن الكنيسة إذا انحازت لأسلوب الخدمة الاجتماعية، فإنه يكفي أن يكون الخادم حاصلاً على شهادة الخدمة الاجتماعية من أي مدرسة أو من الخارج لكي يُعيَّن رئيساً على الخدمة الاجتماعية دون فحص، مع أن خدمة الفقراء هي وظيفة رئيس الشمامسة وتحتاج إلى صفات روحية خاصة!

حينئذ تكون الكنيسة قد نسيت معنى الخدمة المسيحية أي الشموسية الحقيقية، وتكون قد ضاعت فعلاً كلمة "المسيحية" من جوهر الخدمة.

والكنيسة لا ترتاح إلى تسميتها الخدمة الاجتماعية، بل تُسمِّيها **"الخدمة المسيحية" أو "إخوة المسيح"**.

ذلك لأن الخدمة الاجتماعية – حسب مفهومها العالمي – لا تقوم أصلاً على الشهادة للمسيح، ولا العطاء فيها يقوم على أساس شركة الأُخوَّة في المسيح، ولا على المناداة بالتوبة، ولا على الكرازة بالملكوت،

ولا على الصلاة المقتدرة، ولا على الخدام الملتهبين كاسطفانوس الإلهي خادم الموائد المشهور.

ولأن الخدمة الاجتماعية لا علاقة لها بالروح المسيحية، لذلك تقوم بها الحكومات حتى والتي لا تؤمن بالله.

أخطار في مستقبل أسلوب "الخدمة الاجتماعية" في الكنيسة:

الخدمة المسيحية في حدود اختصاصها ليست لها أخطار، ولا يستطيع أحد أن يلومها أو ينازعها سلطانها الإلهي. ولكن الخدمة الاجتماعية لا تقف عند حدود، فهي تنازع الحكومة في كل الميادين، فالخدمة الاجتماعية إذ تشمل رعاية الشباب اجتماعياً، وتوجيههم، وتثقيف العمال وفحص أحوالهم ومطالبهم، والعناية بالطلبة الغرباء، وإقامة النوادي والمعسكرات المحلية والدولية، وترتيب المؤتمرات لبحث المشاكل الداخلية والخارجية للشباب وحالات التعطل والفقر، وإقامة الملاجئ والمستشفيات والجمعيات. فإذا علمنا أن أي نظام للحكم لابد أن يكون له اتجاه خاص ومخطط معين في التوجيه الاجتماعي لجميع هذه الفئات المذكورة، فنحن نرى أنه يتحتم في جميع هذه الأحوال أن تكون الكنيسة دارسة لنظام الحكم حتى يكون مخطط الكنيسة الاجتماعي غير متعارض مع مخطط الحكومة وإلا فالصدام بين الكنيسة والدولة أمر لا مفر منه.

***

ولكن الكنيسة تحتفظ بحقها الإلهي في الإشراف والتوجيه المستمر على جميع الهيئات التي تتبعها والمؤسسات والجمعيات التي لها، وحينما تلتزم حدود الاختصاص المسيحي في الخدمة كما بسطناه، فهو الذي لا

ينازعها فيه أي سلطان آخر أي تلتزم بالكرازة بالكلمة والمناداة بالتوبة وللخلاص ودعوة الإخاء للفقير والبائس والعريان في شخص المسيح وفي حدود الإنجيل.

(٣)

الكنيسة والسلطان الزمني

لمَّا استودع السيد المسيح الكنيسة لرسله وتلاميذه قبل صعوده تاقت نفس التلاميذ - كيهود - أن يكون لهم سلطان ومُلك واقتدار كما كان لإسرائيل في القديم فسألوه: «هل في هذا الوقت تَرُدُّ المُلك إلى إسرائيل؟» (أع ١: ٦) كان هذا السؤال بادرة سيئة أحزنت قلب الرب لسببين:

أما الأول: فلأن السؤال ينمُّ عن عدم فهم لمعنى الصليب في العهد الجديد، **ألم يُنصَّب المسيح على الخشبة ملكاً إلى الأبد؟** ملكاً على القلوب المنسحقة التي كانت تتوق إلى مخلِّص يملك عليها إلى طول الأيام؟

ألم يقل جهاراً لبيلاطس حينما سأله على مرأى ومسمع من رؤساء الكهنة وتلاميذه وكل الشعب: «أفأنت إذن ملك؟ أجاب يسوع: **أنت تقول إني ملك، لهذا قد وُلِدت أنا ولهذا قد أتيت إلى العالم** لأشهد للحق» (يو ١٨: ٣٧).

إن السيد المسيح قد أعلن نفسه ملكاً على الكنيسة من فوق الصليب بوضوح ما بعده وضوح - فكيف يسأله التلاميذ عن عودة المُلك الزمني وكيف تشتهيه نفوسهم؟

أليس هذا هو المسيح الذي أقسم له الله الآب: «أنت هو الكاهن إلى الأبد على رتبة ملكي صادق»؟ وما هي رتبة ملكي صادق، إلا رتبة الملوكية العظمى ملوكية البر والسلام «مَلك البر ثم أيضاً ... ملك السلام» (عب ٧: ٢). ثم ألم يلقبه المزمور ملكوت المسيح «مُلكُكَ مُلكُ كل الدهور»؟ (مز ١٤٥: ١٣)

هل نسي التلاميذ سلطان ملوكيته الرهيب لما أمر البحر ليسكت والرياح لتهدأ وصار هدوء عظيم؟ هل نسي التلاميذ كيف كان يعلِّم كمَنْ له سلطان وليس كالكتبة؟

أم نسي التلاميذ كيف وعد اللص التائب أن يدخل معه الفردوس عندما كان مُعتَلياً عرش الصليب!

يبدو أنه لم يكن قد استقر بعد في أذهان التلاميذ مفهوم الصليب كعرش الرحمة حيث جلس الله الذي كانت ترمز إليه ''الشاكيناه'' في قدس الأقداس حيث كان يتكلَّم الله، حيث لم يكن قد اتضحت الرؤيا في قلوبهم ليروا العرش السمائي والجالس عليه، وفي وسط العرش خروف قائم كأنه مذبوح (انظر: رؤ ٥: ٦)!

ولكن عذراً للتلاميذ لأنه لم يكن قد حلَّ الروح القدس عليهم ليعرفوا معنى القوَّة الحقيقية ومصدرها العجيب.

وأما السبب الثاني فلأن السيد قد لمح من سؤال التلاميذ، حالة الخوف والفزع التي تملكت عليهم بسبب مطاردة رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيين لهم فاشتهت نفوسهم سلطاناً زمنياً لعلهم يتَّقون به شر المطاردين.

ولكن هل نسي التلاميذ أنهم مدعوون لشرب نفس الكأس التي شربها الرب ولنفس الصبغة الدموية التي اصطبغ بها على الصليب؟ فلماذا الهروب؟ وإلى أين يكون - ألعله بسبب هذا أمرهم المسيح أن لا يبرحوا أورشليم حتى ينالوا قوّة من الأعالي؟

هل نسي التلاميذ أنهم شركاء في الميراث والمجد وأنهم مدعوون أن يكونوا ملوكاً وكهنة لله؟! وهل يمكن أن يُنصَّب الإنسان ملكاً مع المسيح إلا على صليب؟ وهل يمكن أن يكون الإنسان كاهناً لله العلي إلا إذا صار ذبيحة واصطبغت ثيابه بدم الخروف؟

ولكن لماذا الخوف أيها التلاميذ؟ ألم يظفر المسيح، كملك، بالشيطان وأعوانه «إذ جرَّد الرياسات والسلاطين (التابعة له) أشهرهم جهاراً ظافراً بهم فيه (في الصليب)» (كو ٢: ١٥).

ولكن عذراً أيضاً للتلاميذ فلم يكن الروح القدس قد حلَّ عليهم بعد ولم تكن كلمة الشهادة قد أنارتهم، لهذا قال لهم المسيح: «لكنكم ستنالون قوّة متى حل الروح القدس عليكم وتكونون لي شهوداً» (أع ١: ٨).

ولكن بعد أن حلَّ الروح القدس وملأ الكنيسة سلطاناً وقوة وشهادة وعطايا ومواهب وكرامات، ماذا يكون عذر الكنيسة لو هي عادت تطلب شيئاً من سلطان الدنيا أو كرامة من الناس أو مجداً أو معونة أو قوّة أو أي شيء من أي أحد؟

لقد عثرت الكنيسة - في عثرة التلاميذ عينها، ولكن إن كنا قد عذرنا التلاميذ آنئذ بسبب عدم حلول الروح القدس عليهم فَبِمَ نستطيع أن

نعذر الكنيسة وهي تقول وتشهد أن الروح فيها!

ولكن للأسف فقد عثرت الكنيسة عبر التاريخ[٥] في نفس هذه العثرة عينها، فكان لما يضيق بها الأمر تلتجئ إلى الملوك ليقووا سلطانها؛ ولكن بقدر ما كانت الكنيسة تستمد القوّة من الملوك بقدر ما كانت تفقد قوتها الروحية التي لا تقوم إلا في الضعف الظاهري! فكثيراً ما عجزت عن أن تضبط الإيمان بالإقناع والمحبة وهرعت إلى الأباطرة ليستصدروا منشوراً ملكياً بالإيمان ولكن بقدر ما كان يُستظهر الإيمان، ويتثبَّت على أيدي الملوك بقدر ما كان يضمحل ويضعف في القلوب.

وكثيراً ما تذللت تحت أقدام الملوك لما قوي مناوءوها فتملّقت الولاة ليعزلوا مناوئيها[٦]، ولكن بقدر ما كانت تتخلّص من أعدائها بقوة السيف، بقدر ما كان يتسلَّط السيف عليها!

كم مرة ضلت الكنيسة الطريق وخاب رجاء المسيح فيها، كم مرة هجرته كملك لتطلب رحمة الملوك بذلة العبيد، ولم تتعلَّم الكنيسة من ملكها كيف قَبِلَ الصليب كملك وأعظم من ملك ثمناً للحق وكان هو الغالب!!

أما بداءة عثرات الكنيسة فكان أيام احتمائها في قسطنطين الملك في القرن الرابع ليتولّى حماية الإيمان بالسيف، كحكم إسرائيل الأول، بدل المحبة والصلاة وعهد المسيح! وجاء بعده الملك ثيئودوسيوس ليأمر بهدم

(٥) في الغرب في عصور الهرطقات، وعلى الأخص في القرون الوسطى.

(٦) كما حدث مع البابا أثناسيوس الرسولي، ومع القديس البابا ديسقوروس في القرنين الرابع والخامس الميلاديين، حينما استنجد رجال الكنيسة الهراطقة بالملوك البيزنطيين لنفيهما عن كرسيهما.

معابد الوثنيين بقوة العسكر كأيام ملوك إسرائيل في القديم بدل البشارة المفرحة بالمسيح والإقناع بكلمة الإنجيل!

وكأنما وجدت الكنيسة (في بيزنطة ابتداءً من القرن الرابع) في **قسطنطين الملك** ومن بعده «**مَنْ يردُّ الملك لإسرائيل**»، الذي كان أمنية التلاميذ الأُولى وأحلام المخاوف. أليس هذا هو قسطنطين الملك أول مَنْ قاد حرباً صليبية في العالم، رافعاً الصليب على راية العداوة جاعلاً شعار الحياة هو نفسه شعار الموت والهلاك؟ إذ لأنه اختلطت عليه الرؤية فظن أن الصليب الذي رآه في الرؤيا والكلمة التي سمعها "بهذا تغلب" يعني أن يحارب الناس وينهب الممالك باسم الصليب **بدل أن يفهمها وتفهمها معه الكنيسة: أن يغلب قوَّة الشيطان وعظمة العالم الكاذبة غلبة الخلاص والمجد الحقيقي كالمسيح!** وكما يحق للصليب! ولكن للأسف لم يدرك التاريخ الكنسي بعد أنه **وإن لم يكن عاراً على قسطنطين الملك أن يحارب أعداءه ولكن كان عاراً عليه وكل عار أن يحارب أعداءه باسم الصليب!**

البعض لا يزال فيهم فكر قسطنطين إذ يتطلعون أن يكون للكنيسة قوَّة وسلطان زمني إن لم تكن منفردة بقوة المال والرجال والقانون فيكون باحتمائها (بكنائس) أخرى قوية!

وكأنما قول الإنجيل هذا وعبَر التاريخ جميعاً لم تكفِ الكنيسة لتعرف أن في اعتمادها على القوَّة الزمنية هجراناً أكيداً للمسيح كملك، وإنكاراً أيضاً للروح القدس كمصدر للقوة والعزاء! ولم تعرف بعد أن الكنيسة وكل مَنْ فيها مدعوٌّ للشهادة والصليب على مدى الدهور.

وكأنما الكنيسة لم تعرف بعد أن "ما لقيصر" يلزم أن يبقى لقيصر وأن "ما لله" يلزم أن يبقى لله.

فمصدر القوَّة عند قيصر: المال وسياسة الدهاء والقدرة على البطش. ومصدر القوَّة عند الله، الروح القدس وقدرة الشهادة للحق والاستعداد للموت.

فأي اجتماع لهذا مع ذلك؟ أو كيف يجتمع المال مع الروح القدس؟ وهل يمكن أن تجتمع سياسة الدهاء مع القدرة على النطق بالحق؟ أو هل يمكن لأحد أن يبطش بالناس وهو مستعد أن يموت عنهم؟ إذن فهما قوتان متعارضتان إذا اجتمعتا معاً فلابد أن تلغي الواحدة منهما الأخرى. لذلك فبقدر ما تميل الكنيسة إلى واحدة منهما بقدر ما تبتعد عن الأخرى. ولكن أية خسارة عظيمة تخسرها الكنيسة إن هي مالت إلى القوَّة الزمنية، إنها تفقد بالضرورة معونة الروح القدس لها فينعقد لسانها عن الشهادة للحق ولا تضبط قدرة على فِدْية الناس!

من هذا نتحقق عمق ما تحويه وصية المسيح «أعطوا إذاً ما لقيصر لقيصر وما لله لله» (مت ٢٢: ٢١)، ويتبين قصده من الفصل بينهما.

فقيصر سيظل إلى الأبد رمزاً للسلطان الزمني والله لسلطان الروح ولا يمكن أن نخدم الواحد بالآخر.

الله لا يمكن أن يتمجد بسلطان قيصر «لأن مجد السماويات شيء ومجد الأرضيات آخر» (١كو ١٥: ٤٠)، وكذلك الكنيسة. والتجربة في الإنجيل واضحة: عندما تحمس الشعب ليُدخلَ المسيح في تجربة السلطان الزمني تركهم ومضى وحده «إذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا

ويختطفوه ليجعلوه ملكاً، انصرف ... وحده» (يو ٦: ١٥)، وعندما تباحثوا معه أوضح لهم أنه يرفض مجد الناس «مجداً من الناس لست أقبل» (يو ٥: ٤١). هذا هو رب الكنيسة ورأسها وهو بسلوكه يخط لها الطريق الذي تسلكه. فإن ارتاحت هي إلى مجد الناس فارقها مجد الله بالضرورة، وإن هي سعت أن تكون صاحبة سلطان واقتدار بغير الروح القدس والمحبة وقعت في الأسر والتيه، وإن هربت من الصليب هجرها الروح.

كذلك من الخطأ أن نسلب حق قيصر في الخضوع والولاء والإكرام لنضيفه إلى الله والكنيسة لأن ذلك يرفضه الله كما رفض المسيح كل مَنْ يسلب حق أبيه وأُمه ليعطيه قرباناً لله (مر ٧: ٩-١٣). الله هو الذي قال: «أكرم أباك وأُمك» فكيف يقبل الله إكراماً مسلوباً؟

الله هو الذي قال: «أعطِ ما لقيصر لقيصر وما لله لله» فكيف يقبل الله حقاً مغتصباً؟

⊙ وسيان من حيث الخطورة والدوافع المنحرفة أن تطلب الكنيسة القوَّة من السلطان الزمني، أو أن تحض على الاستهتار بقوة السلطان الزمني، لأن في الأُولى خروجاً عن اختصاص الكنيسة، وفقداناً لمصدر قوتها الروحية كما أثبتنا، وفي الثانية خروجاً على المنطق المسيحي ووصية الإنجيل، ووقوعاً في دينونة الله، لأن الكتاب يقول: «المقاومون (للسلطان) سيأخذون لأنفسهم دينونة» (رو ١٣: ٢).

وفي الواقع يُعتبر الاستهتار بالسلطان الزمني تشجيعاً للشر وللأشرار،

ولكن لا يزال هناك خطر بعيد المدى يتسبب من حض الرعية على الاستهتار بواجباتهم تجاه السلطان الزمني بحجة أن الكرامة والخضوع والولاء هما لله فقط وبالتالي طبعاً للكنيسة.

⊙ مثل هذا التعليم المخالف للكتاب المقدس يُسيء إلى الله وإلى المسيحية عموماً إساءة بالغة، إذ بذلك يُدخلون في روع المؤمنين أن الله عدو لقيصر، والمسيحية عدوة للدولة والوطنية، وهذا افتراء وجهل. ولكن بهذا التعليم يجعلون الدين عثرة في طريق تقدم الإنسان وارتقاء الأوطان إذ يبثون التحيز والانقسام والتكتل الديني مما يزيد بلاء التعصب ويُولِّد عقدة الاضطهاد عند الأقليات فيجعلهم مركز ثقل في الدولة يعيق تقدمها. إن هذه الروح غريبة عن المسيحية وهي وليدة الجهل، وهي التي كانت أحد الأسباب المباشرة لانفجار الثورة الشيوعية في روسيا، لذلك كان أصحابها هدفاً لقصاص مرعب.

الكتاب المقدس لا يترك الكنيسة حرة أن تسلك كيفما يشاء رجالها. فمنهج العلاقات بين الكنيسة والدولة واضح لا لبس فيه ولا إبهام وليس عذر لإنسان إن أخطأ فيها، كائناً مَنْ كان، أو إن هو سلك بخلافها. وها نحن نضع أمام القارئ الآيات المؤيدة لذلك:

(لو ٢٠: ٢٥): «أعطوا إذاً ما لقيصر لقيصر وما لله لله».

(رو ١٣: ١): «السلاطين الكائنة هي مُرتَّبة من الله».

(رو ١٣: ١): «ليس سلطان إلا من الله».

(رو ١٣: ١): «لتخضع كل نفس للسلاطين».

(رو ١٣: ٢): «إن مَنْ يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله».

(رو ١٣: ٢): «المقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة».

(رو ١٣: ٤): «هو خادم الله منتقم للغضب من الذي يفعل الشر».

(رو ١٣: ٥): «يلزم أن يُخضَعَ له ليس بسبب الغضب فقط ولكن لسبب الضمير».

(رو ١٣: ٧): «أعطوا الجميع حقوقهم ... الخوف لِمَنْ له الخوف والإكرام لِمَنْ له الإكرام».

(١تي ٢: ١-٣): «فأطلب أول كل شيء أن تُقام طلبات وصلوات وابتهالات وتشكُّرات ... لأجل الملوك وجميع الذين هم في منصب لكي نقضي حياة مطمئنة هادئة في كل تقوى ووقار لأن هذا حسن ومقبول لدى مخلِّصنا الله».

(تي ٣: ١و٢): «ذكِّرهم أن يخضعوا للرياسات والسلاطين ويطيعوا ويكونوا مستعدين لكل عمل صالح ولا يطعنوا في أحد ويكونوا غير مخاصمين حلماء مظهرين كل وداعة لجميع الناس».

(١بط ٢: ١٣): «اخضعوا لكل ترتيب بشري من أجل الرب إن كان للملك فكمَنْ هو فوق الكل أو للولاة فكمُرسَلين منه».

(١بط ٢: ١٧): «خافوا الله، أكرموا الملك».

(٤)

الكنيسة والوطن

معلوم أن الحياة الأبدية هي الوطن السمائي للذين اختيروا وتعيَّنوا من قِبَل الله لهذا الميراث الذي لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل المحفوظ في السموات. ولكن لم تُدعَ الحياة الأبدية "بالوطن الأفضل" للإنسان إلا على أساس أن الحياة هنا هي "فاضلة" أيضاً، لأن الأفضل لا يمكن أن يكون أفضل إلا بسبب وجود ما هو فاضل.

⊙ لا يمكن ولا نوافق أحداً أن يدعو الحياة هنا أنها نجسة أو دنسة فالذي خلقه الله وقدَّسه، لا تنجسه أنت. فكما أن كل شيء طاهر للأطهار، كذلك الحياة أيضاً تكون فاضلة للفضلاء.

الوطن السمائي لا يلغي وجود الأوطان. والسعي نحو الوطن السمائي لا يشمل معنى إنكار الأوطان. فالمسيح نفسه قيل عنه «وخرج من هناك وجاء إلى وطنه وتبعه تلاميذه» (مر ٦: ١)، مع أنه معلوم لدى الجميع أن المسيح قائم أبداً في حضن أبيه كما يقول الكتاب.

والحنين الذي ينمو في الإنسان جسدياً نحو وطنه الأرضي لا يعطل الحنين الذي ينمو في الإنسان روحياً نحو وطنه الأعلى، لأن لكل حنين ميدانه الخاص الذي ينمو فيه، فهذا في الجسد، وهذا في الروح، وخطأ أن نخلط بين الاثنين، أو أن نوئد الواحد لنُحيي الآخر، فلكل حنين عمله

في تكميل الإنسان، وجيد للإنسان أن يكون سليماً معافى في كل مشاعره الجسدية ليؤهَّل أن يكون أيضاً إنساناً روحياً سوياً.

⊙ **فالوطن الأرضي ضرورة للإنسان ليكون كاملاً جسدياً،** كما أن الوطن السمائي ضرورة ليكون كاملاً روحياً أيضاً.

نمو الجسد الطبيعي هو وحده ينشئ الحنين نحو الوطن الذي تربى فيه الإنسان، ونُبل الإنسان وأمانته يحوِّلان الحنين إلى ولاء جميل.

أن نخدم الوطن الأرضي باجتهاد، حصيلةٌ طبيعية للنمو الطبيعي لأن إعالة الوطن للإنسان من جهة ما يقدِّمه له من الأكل والشرب وعطف الأهل والأصدقاء وارتباط مرح الصبوة بالأماكن، ينشئ في الإنسان النبيل دوافع طبيعية مُلحَّة لرد الجميل ويحمِّله تلقائياً روح المسئولية للدفاع عنه!

⊙ **إن كبت الروح الوطنية نوع من وأد الروح الإنسانية** ومحاولة توجيه الإنسان نحو وطنه السمائي على حساب احتقاره للوطن الأرضي قصور في فهم النفس البشرية، وإضرار بنموها، والأجود أن نُنمي في الإنسان توقير الاثنين، فهذا حق وعدل وهو موافق لروح الإنجيل أيضاً. والإنسان إذا تُرِكَ لطبيعته، نجده أنه كلما نما روحياً، قَوِي حنينه للحياة الأبدية مع احتفاظه بعلائقه التي تربطه بوطنه وأهله وأصدقائه وجميع الناس سليمة ناجحة نافعة.

أما تربية الشباب على أساس تغليب الواحدة على الأخرى باستخدام النهي والتحذير والازدراء، فإنه ينشئ حتماً نوعاً من الكبت تختل على أثره علاقات الإنسان بأهله وبلده، ويغشاه شعور بالوحشة واليأس

ويجعله تائهاً عن نفسه الحقيقية، ويظل يبحث عن شيء ضائع في حياته ولكن هيهات فلن يجده، لقد وُئدت وماتت: إنها الروح الوطنية[٧]. مِن هذا تظهر خطورة المهام الملقاة على الذين يتولون تدريس الدين للشباب ويوجهون ميولهم وأهدافهم أن نخدم الوطن الأرضي بإخلاص ونخدم الله أيضاً باجتهاد، فهذا حق ولائق لقول الرب: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله».

المسيح لم يقل اكتفوا بإعطاء قيصر ما له، ولا قال اكتفوا بعطاء الله، ولكنه جمع بين الاثنين لكي نعطي قيصر والله كلاً منهما حقه في مجاله.

لو كانت حقوق قيصر هي نفسها حقوق الله لصار هناك استحالة ولصار قيصر ندًّا لله أو معادلاً له. وحاشا.

حق قيصر يبتدئ وينتهي عند حدود الوطن الأرضي.

وحق الله يبتدئ عند حدود ملكوته الأبدي في الوطن الأعلى ولا نهاية لحق الله.

إذن، ليس هناك تعارض ولا هناك معادلة. حق قيصر هو حق الوطن وهو فرض وواجب يقوم به الإنسان جسدياً بكل ما أُوتي من أمانة وشرف، ومن أدب ومعرفة، ومن شجاعة وثبات. وحق الله هو حق الروح فهو بالروح يؤدَّى بالوداعة والتواضع، وبالمحبة والصفح، والفرح بالإهانة والاضطهاد.

---

(٧) ومن الجهة الأخرى طبعاً يجب أن يوعظ الرجل المستهتر الذي لا يسلك طريق النمو السليم الذي ينحاز إلى الاستمتاع بشهوات الجسد وملذات الدنيا على حساب إهماله للروحيات واحتقاره للحياة الأبدية حتى يسترد اتزانه في السلوك.

وهكذا يتضح أن خدمة الواحد لا تعطل خدمة الآخر فلكل مهمة ما يناسبها من السلوك والاستعداد.

إننا نرى أن خدمة الوطن الأرضي لا تعطل خدمة الوطن السمائي، وعلى هذا فإن جمع الإنسان بين الصفات اللازمة للأولى وضمّها إلى الثانية يرى الإنسانية في أعلى صفاتها كيف تخدم الله جلّ اسمه.

كذلك فالإنسان الروحي إذا خدم وطنه فإنه يتفوق تفوقاً باهراً بلا نزاع ويكفي أن يضع القارئ الصفات الثانية على الصفات الأُولى ليرى مدى القدرة الناتجة.

وإن كانت برامج التعليم الديني على وجه العموم قد قصّرت فيما مضى من نحو تنشئة الروح البشرية تنشئة سوية، فإنه قد حان للقادة أن يتداركوا الخطأ فيعدّلوا البرامج والعقول حتى تستطيع أن تستوعب هذه الحقائق لبناء النفس بناءً سليماً.

(٥)

الكنيسة وحرية المواطن المسيحي

حينما نقول أن **ليس للكنيسة** أن تعتمد على قوّة السلطان الزمني ولا يليق لها أن تجمع بين سلطانها الروحي والسلطان الزمني، **لا ينطبق قولنا هذا على المواطن المسيحي**، فالمواطن المسيحي في حياته الجسدية هو نفسه جزء من السلطان الزمني لأنه ربما يكون جندياً أو وزيراً أو ملكاً. فهو يرتبط حتماً بالسلطان الزمني يخدمه ويستخدمه أيضاً بلا حرج.

وينتج عن ذلك حتماً أن تصرفات المواطن المسيحي فيما يختص بأمور السلطان الزمني لا تقع تحت سلطان الكنيسة قطعاً. فالكنيسة لا تستطيع أن تلفت نظر وزير مسيحي أو عسكري في تصرفاته الحكومية لأنه ليس تحت سلطانها.

الكنيسة تسأل المواطن المسيحي فيما يختص بإيمانه وعقيدته وسلوكه الروحي.

وهذا يؤدي إلى أن حرية المواطن المسيحي مكفولة في التصرف وإبداء الرأي والاشتراك في كل ما يخص وطنه في كل الأمور الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على السواء. دون الرجوع إلى الكنيسة ودون أن تكون الكنيسة مسئولة عن تصرفه، طالما هو يعبد الله بخوف ويسلك

حسب ناموس المسيح.

⊙ لذلك فالمفروض على الكنيسة أن تترك للمواطن المسيحي الحرية الكاملة في قيامه بأعبائه الوطنية حتى لا تكون الكنيسة مسئولة أمام الدولة عن تقصير أبنائها في أدائهم الواجب الوطني.

⊙ بل المفروض بالأولى أن تحثهم على القيام بأعبائهم الوطنية وتذكّرهم دائماً أن يخضعوا للرئاسات والسلاطين ولكل ترتيباتهم كقول الإنجيل (رو ١٣: ١،٢؛ تي ٣: ١،٢) حتى تصبح الكنيسة نفسها قد أدت واجبها الوطني كأمر الإنجيل - لأن الفعل في الآية جاء بصيغة الأمر «ذكّرهم أن يخضعوا».

ولكن دون أن توحي الكنيسة للمؤمنين بالتزام خطة معينة أو بسلوك تصرف معين تجاه الدولة حتى لا تكون مسئولة أمام السلطان الزمني عن تصرف زمني، لأن الكنيسة مسئولة فقط أمام المسيح عن تصرفهم الروحي.

رجل الدين، والدولة:

رجل الدين بوجه عام يجب أن يمثل فكر المواطن الحر ويمثل فكر الكنيسة أيضاً. فإذا تكلّم كان مسئولاً أمام الدولة عن كلامه فيما يختص بالأمور الزمنية سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية.

وإذا تكلم بأمر الكنيسة وكما تمليه عليه في الأمور الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية التي هي أصلاً ليست من اختصاص الكنيسة صار

هو والكنيسة مسئولَينْ أمام الدولة. **لذلك يلزم الكنيسة أن لا تأمر رجل الدين أن يتكلّم إلا فيما يختص بالشئون الكنسية وفي دائرة اختصاص المسيحية حتى لا تقف الكنيسة مسئولة أمام السلطان الزمني، لأنها لا تُسأل قط إلا أمام المسيح روحياً.**

رجل الدين عامة له كل حقوق المواطن الحر. والرسامة لا تلغي شخصيته كإنسان وإنما تضيف إليها صفة كنسية، وحقوقاً إلهية، فهو بشبه المسيح يحيا، وباسمه يكرز ويتكلم، وبفمه يُعلّم ويوبخ، وبسلطانه يحل ويربط، وهو سفير الكنيسة أينما حلّ في دائرة رعايته. **ولكن صفة الكاهن الكنسية لا تعطيه حصانة ضد مؤاخذات الدولة، فهو يمثل أمام الدولة كمواطن أولاً وقبل كل شيء.** لذلك يلزم أن يكون حريصاً في معرفة الواجبات التي تربطه بالدولة، وحقوق الوطن عليه يؤديها جميعاً في دقة ومبادرة، وكما سلك السيد له المجد يسلك هو أيضاً ناظراً كيف بادر المسيح ودفع الجزية دون احتجاج مع أن القانون آنئذ لم يكن يسمح بجمعها من المواطنين وإنما من الغرباء فقط.

الكاهن رب أسرة جسدية أفرادها كلهم مواطنون للدولة يعولهم من عرق جبينه، لذلك فله لدى الدولة حقوق المواطن الكادح، وله أيضاً أن يعلن عن رأيه كمواطن مسئول ويعطي صوته في حينه. كما أن الكاهن أيضاً راعٍ لشعب، ولكن بسبب أن الكنيسة لا الدولة هي التي أقامته على الشعب، فإنه يصبح مسئولاً عن رعيته أمام الكنيسة وليس أمام الدولة، كما يصبح عليه أن يُعلّم رعيته بما تأمره به الكنيسة التي

أقامته. وليس للكنيسة أن تأمره أن يعظ أو يُعلِّم إلا في حدود اختصاصه. والكاهن مسئول أن يمهد لشعبه بواسطة خدمة الكلمة والصلاة حياة التوبة لتخلص نفوسهم في يوم الرب.

ولا يتسلط الكاهن على شعبه كحاكم ولكن كخادم وبخوف الله كما يقول الله نفسه: «إذا تسلط على الناس بارٌّ يتسلط بخوف الله، وكنور الصباح إذا أشرقت الشمس» (٢صم ٢٣: ٣،٤).

ليست الرسامة عقد خدمة يُبرم بين الإنسان والكنيسة يكون الإنسان فيه هو المتقدم، ولكنها عهد أبدي يعقده الله مع الإنسان بشرط أن يكون الله هو الداعي، فيرتبط الإنسان بالله برباط الروح الأبدي ويُختم العهد بأصبع الله ويظل محفوظاً في السموات «لأنه وضع لي عهداً أبدياً متقناً في كل شيء ومحفوظاً» (٢صم ٢٣: ٥).

وشرط تكميل العهد أن يتنازل الإنسان عن ملكيته لنفسه فيصبح الله مالكاً لحياته «لا يطلب أحد ما هو لنفسه بل كل واحد ما هو للآخر» (١كو ١٠: ٢٤)، لكي يكون الكاهن مستعداً دائماً أن يموت كل يوم ليتمم عهد رسامته من أجل خراف الله الضالة.

لهذا يلزم جداً أن يكون الإنسان المقدَّم للكهنوت حراً لنفسه، غير مديون لأحد بشيء، لئلا يصير بعد الرسامة تحت نير أحد أو تحت نير العالم، وإلاَّ كيف إذن يكون مستعداً أن يموت لله؟

يلزم أن يكون المقدَّم للكهنوت قد وفَّى عهد محبته للناس جميعاً كوصية

المسيح حتى لا يتبقى بعد الرسامة عداوة منه لأحد أو له من أحد!

ويلزم بالضرورة أن يكون قد وفَّى الجميل لوطنه ولا يكون متهرباً من واجب الدولة حتى تُحسب نفسه أمينة كنفس بار، وغير محسوبة عنده. الرسامة تربط الكاهن بشعبه برباط سري كما يرتبط الزوج بزوجته فيصير الكاهن وشعب كنيسته جسداً للمسيح. لذلك لا يستطيع الكاهن بعد الرسامة أن يرتبط بعهد آخر، أو يخدم تحت نير آخر، لذلك فهو بالضرورة أيضاً لا يستطيع أن ينخرط في الجيش أو يحمل السلاح، أو يتطوع لغير الكنيسة. إنه مشغول في مهمته العظمى.

الكاهن جندي عامل في جيش الرب ليست له راحة، ولا أيام استيداع، فهو يعمل بلا هوادة تحت رئاسة المسيح «كرئيس جند الرب» (يش ٥: ١٤) في حرب مع العدو الحقيقي وهو إبليس، لا تنتهي إلا بانتهاء هذا الدهر.

أما إن قام وطنه بحرب في الخارج أو الداخل فهو الأمين على معنويات رعيته يبث روح الصبر والاحتمال والشجاعة ويفتقد الأرامل والأيتام والمصابين والذين أصبحوا بلا عائل أو مأوى، وبالنهاية فإن خدمة الكاهن لائقة ونافعة للدولة أيضاً إنْ في أيام السلم أو الحرب على السواء.

(٦)

مسئولية المواطن المسيحي

تجاه أنظمة الحكم

على المواطن المسيحي أن يدرك أنه مسئول أمام ضميره وأمام التاريخ عن أنظمة الحكم في الدولة.

فأي فساد أو إفساد في أنظمة الحكم والنكوص بها إلى حالات الرجعية والعنصرية والحزبية وما ينشأ عن ذلك من فساد المجتمع كله وتدهور الاقتصاد والغلاء والبلاء، لابد وأن يقع أول ما يقع على المسيحي لأن طبيعته الروحية توحي إليه أن لا يتهرب من تحمل التبعات حتى ولو لم يكن مشتركاً في تسببها.

فإن كنا قد علمنا أن الكنيسة ليس لها أن ترشده، كذلك أيضاً، لا يمكن أن تسنده - إلا بالصلاة - في تصرفه في كل الأمور الاجتماعية والاقتصادية والسياسية؛ من ذلك يظهر جسامة التُبعة الواقعة على المواطن المسيحي من حيث تفهم أنظمة الحكم ومتابعة تطورها متابعة واعية حتى يستطيع أن يزن كل موقف من المواقف ويحكم حكمه الخاص المبنِي على المعرفة الاجتماعية الحرة، وفهم الأوضاع السياسية والاقتصادية قياسا على ما مرت به بلادنا سابقًا وما تعانيه البلاد الأخرى في الحاضر حتى يخرج حكمه سليماً ناضجاً غير متحيز، دون أن يقحم الدين أو الكنيسة أو مصالحه الشخصية في حكمه.

وبذلك يضمن المواطن المسيحي أنه لن ينساق في تيارات خطرة «احترسوا من أن تنقادوا بضلال الأردياء» (٢بط ٣: ١٧).

والذي نود أن نوضحه للمواطن المسيحي أن حالة عدم المبالاة بمجريات الأمور في الدولة لا يمكن أن تنتهي إلا بخسارة شديدة حينما يصحو فلا يجد نفسه في الرَكْب. مع أنه إذا حُكِم على فرد بالعزل السياسي نجده يضطرب أشد الاضطراب ويفزع في أعماق نفسه حينما يحس بمفهوم معنى العزلة، فكيف يستسيغ المواطن أن يعزل نفسه بنفسه ولا يتأثر بركب الحياة الجديدة التي يمر بها الوطن عامة أمام عينيه؟

إننا سوف نُسأل يوماً من أولادنا وذوينا عن الدور الإيجابي الذي قمنا به في تحرير وطننا ورقيِّه فماذا نجاوب عن أنفسنا؟

والمواطن المسيحي لا يستطيع أن يعتمد على مسيحيته في التهرب من واجباته الوطنية لأن في ذلك إساءة لمسيحيته وتحميلها ما لا تطيق، فالمسيحية وبالتالي الكنيسة ليس لها اتجاه خاص في أنظمة الحكم ولا تناصر وضعاً اجتماعياً أو سياسياً، ولا تمالئ أي نظام إن كان حسناً ولا تقاومه إن كان رديئاً **ولكنها تعمل ما هو أعظم من ذلك كله، فهي تهب أولادها حرية كاملة ليتصرف كل واحد منهم في أمور الدنيا حسب أصول الدنيا دون أن يجرح ضميره المسيحي،** فيناصر الوضع الأفضل، اجتماعيا كان أو اقتصاديا أو سياسياً بكل ما أوتي من معرفة اجتماعية واقتصادية وسياسية دون أن يكون في مقاومته للأردأ تهور أو استهتار.

وليعلم المواطن المسيحي أنه سوف يُسأل من الدولة ليعطي الجواب عن نفسه إن هو مالأ النظام الفاسد أو ساند الأفكار الرجعية سواء كان

عن خوف أو جبن أو استهتار أو مداهنة أو خيانة.

صحيح أن الكنيسة لن يصيبها سوء إذا أخطأ المواطن المسيحي لكنها ستحمل عاره كما تحمل الأم عار ابنها الذي يُضبط في خيانة. والكنيسة لا تطيق أن تكون أماً للجبناء أو الخانعين أو الخونة.

وبالمثل أيضاً فالمواطن المسيحي مسئول عن نفسه إن هو قاوم الحكم الناجح البنَّاء وتآمر عليه في الخفاء أو العلن، فليتحمل وحده ما يصيبه، ولو أن المسيحية والكنيسة كلها ستظل تئن من أجله كما تئن الأم من أجل ابن عاق، لأنها لا تطيق أن تكون أماً لأولاد عُصاة متمردين على الحق.

والجهل لا يعفي في الحالتين، لذلك كم هو ضروري أن يكون المواطن المسيحي شجاعاً وديعاً أميناً للحق - أينما وُجِدَ - واعياً لكل جديد يقرأ ويتابع الحوادث الجارية في وطنه.

ومن هذا كله يظهر لنا أن وطنية المسيحي وكل ما يتعلق بها من تصرفات خاصة وعامة سواء في الاجتماع أو الاقتصاد أو السياسة إنما تنبع من كيان المواطن لا من كيان الكنيسة، تغذيها ثقافته الخاصة وتربيته المدرسية، فإذا عرفنا أن الدولة هي المسئول الأول عن ثقافة المواطن وتربيته المدرسية، تأكدنا أن الدولة في النهاية هي المسئولة عن وطنية المواطن المسيحي لا الكنيسة أو رجال الدين.

ومن ثم فعلى الكنيسة أن تدع المواطن المسيحي يتحرك بحرية في كل الاتجاهات كما يشاء وكما تمليه عليه تربيته ونشأته وثقافته ويتحمل هو تبعة تحركه. وتظل الكنيسة فوق كل هذه التحركات جميعاً تعمل في اختصاصها لخلاص نفسه وإهداء قدميه في طريق ملكوت الله.

(٧)

الكنيسة وعقدة الاضطهاد

⊙ إنَّ في شعور الإنسان بالاضطهاد كحالة واقعة مستديمة خطراً على بناء النفس البشرية وعلى مستقبل كفاءتها وإنتاجها، هذا بالنسبة للإنسان كمواطن، وأما بالنسبة للإنسان كمسيحي فإن الإحساس بالاضطهاد مع عدم القدرة على تَفَهُّمه وقبوله، خطر على كيان الإيمان كله، وهنا عمل الكنيسة.

موضوع الاضطهاد عموماً مشكلة يلزم أن يُنظر إليها بمنظارين، **منظار علم النفس، ومنظار الدين** حتى يستقر الرائي إلى العوامل ثم إلى الحلول.

ونحن نقتصر على رؤيتها بمنظار الدين فنكتفي بتقديم الحلول دون الخوض في العوامل النفسية، لا تهيُّباً من المشكلة ولكن التزاماً بالاختصاص.

فلنفرض الآن أنه يوجد اضطهاد فعلاً فهل هذا يتعارض مع إيماننا المسيحي؟ أو هل يؤثر على حياتنا الداخلية وجهادنا الروحي؟ وهذا السؤال يعود بنا إلى اختصاص المسيحية، هل وعدنا المسيح أننا نجوز معركة الحياة بسهولة وكرامة وأمجاد دنيوية كشهود له وكساعين بالتوبة نحو ملكوت الله؟ أم أنه سبق فأنذرَنا أن الباب المؤدي إلى الحياة الأبدية ضيق غاية الضيق وأن الطريق نفسه كَرْب غاية الكَرْب؟

ها نحن نضع أمام القارئ إنذارات الرب آية آية لننظر ما قد سبق

الرب ووعد به ولنرى هل الضيقات التي نجوزها في الحياة هي في صميم المنهج المسيحي ومن مستلزمات الإيمان أم أنها تحدث لنا جزافاً؟

١ – «إن كان **العالم يبغضكم** فاعلموا أنه قد أبغضني قبلكم» (يو ١٥: ١٨).

٢ – «اذكروا الكلام الذي قلته لكم ... إن كانوا قد اضطهدوني **فسيضطهدونكم**» (يو ١٥: ٢٠).

٣ – «كلمتكم بهذا لكي لا تعثروا. **سيخرجونكم** من المجامع بل تأتي ساعة فيها **يظن كل مَنْ يقتلكم أنه يقدِّم خدمة لله**» (يو ١٦: ١ و٢).

٤ – «سيسلمونكم إلى مجالس وتُجلدون في مجامع» (مر ١٣: ٩).

٥ – «**بضيقات كثيرة** ينبغي أن ندخل ملكوت الله» (أع ١٤: ٢٢).

٦ – «**طوبى للمطرودين** من أجل البر» (مت ٥: ١٠).

٧ – «طوبى لكم إذا عيَّروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين» (مت ٥: ١١).

٨ – «أيها الأحباء **لا تستغربوا البلوى المحرقة** التي بينكم حادثة **لأجل امتحانكم** كأنه أصابكم أمر غريب» (١بط ٤: ١٢).

٩ – «**إن عُيِّرتم باسم المسيح فطوبى لكم** لأن روح المجد والله يحل عليكم» (١بط ٤: ١٤).

١٠ – «فلا يتألم أحدكم كقاتل أو سارق أو فاعل شر أو متداخل في أمور غيره ولكن **إن كان** (يتألم) **كمسيحي فلا يخجل** بل يمجد الله من هذا القبيل» (١بط ٤: ١٥،١٦).

١١ – «فمَنْ يؤذيكم إن كنتم متمثلين بالخير ولكن **وإن تألمتم من أجل البر فطوباكم**» (١بط ٣: ١٣،١٤).

١٢ – «لأن هذا فضل إن كان أحد من أجل ضمير نحو الله **يحتمل أحزاناً متألماً بالظلم**» (١بط ٢: ١٩).

١٣ – «لأنه أي مجد هو إن كنتم تُلطَمون مخطئين فتصبرون؟ بل **إن كنتم تتألمون عاملين الخير** فتصبرون فهذا فضل عند الله لأنكم لهذا دعيتم» (١بط ٢: ٢٠،٢١).

إذن فالاضطهاد في المنهج المسيحي حقيقة ضرورية وهي في الواقع شبه حتمية! فمَنْ ذا يستطيع أن يلوم الله؟

ولو دققنا في حياة الرب يسوع وفي حياة الرسل وبالأخص القديس استفانوس أول الشهداء والقديس بولس الرسول عمود الإيمان مثلاً، لوجدنا أن الاضطهاد الذي وقع عليهم كان أساسه رؤساء الكهنة وأتباعهم والمتعصبون لعقائدهم! وإذن فالاضطهاد في حد ذاته ضرورة لتكميل الشهادة أو كما يقول القديس بطرس: «لأجل امتحانكم».

⊙ إذن فلا يهمنا بعد ذلك أن نلتفت إلى المصدر الذي ينبعث منه الاضطهاد بل يلزم أولاً أن نفحص أنفسنا هل نحن مستعدون للشهادة للحق بمقتضى إيماننا المسيحي أم لا، فإن كنا مستعدين يلزم بالضرورة أن نستعد لتحمُّل الاضطهاد من أي مصدر كان دون أن نلوم مضطهدينا أو نتململ من آثار ونتائج الاضطهاد حتى يتزكى إيماننا لدى الله، لأن الإيمان الذي لا يدخل الاختبار لا يعتبر إيماناً ولا نجازَى عليه بشيء «وإن كان يجب تُحزَنون يسيراً بتجارب متنوعة لكي توجد تزكية

إيمانكم ... للمدح والكرامة والمجد عند استعلان يسوع المسيح» (١بط ١: ٦،٧).

وليتيقظ القارئ ويصحو لئلا يُسرَق جهاده بسبب تذمُّره ويصير تعبه وآلامه التي يتألَّم بها بسبب الحق والإيمان كأنها لا شيء.

وإن كانت توجد مسببات أخرى للآلام لا حصر لها ومصادر متعددة لأتعاب الإنسان ومضايقاته، فإنه لا يوجد من بينها ألم مقدس وتعب مبارك وضيق مطوَّب مثل الذي يحدث لنا بسبب الاضطهاد من أجل الحق واسم المسيح.

ولماذا نحتمل الآلام والخسارة الناشئة من المرض ولا نحتمل الآلام والخسارة الناشئة من الاضطهاد؟ مع أن الأولى لا ثمن لها أما الثانية فكريمة في عين الله «لأن روح المجد والله يحل عليكم» (١بط ٤: ١٤). وهل يمكن أن يُقاس المجد العتيد أن يُستعلَن فينا الذي سنصير شركاء فيه بالآلام التي نحتملها الآن مهما كانت ثقيلة؟

إن نظرة قياسية رزينة إلى سبب الاضطهاد ونتائجه يجعلنا ندرك ما أدركه الرسول يعقوب فنهتف معه: «احسبوه كل فرح يا إخوتي حينما تقعون في تجارب متنوعة» (يع ١: ٢).

ولكن ماذا تقول في المواطن المسيحي الذي اعتاد الشكوى من الاضطهاد بسبب وبغير سبب وفي كل وقت في مناسبة وفي غير مناسبة؟

نقول إن إصرارنا على الإحساس بالاضطهاد بعد أن عرفنا أنه ضرورة إيمانية وامتحان إلزامي للسائرين في طريق ملكوت الله، يلزمنا بأن نقف وقفة واعية خطيرة لنقرر مرة واحدة **إما نحن للمسيح أو للعالم!**

وحينئذ لا يعود هنا تذمر لا نجني من ورائه إلا ازدياد العقدة اتساعاً وخطورة، وعداوة للناس وكراهية للعمل.

المنفذ إلى رفع عقدة الاضطهاد:

صحيح أن الوطن ورث هذا الانقسام وهذا المرض الخبيث من العصور المظلمة، حينما كان الجهل الديني يسود عامة الشعب، وحينما كان يحكم هذا الوطن ولاة غرباء مستبدون متعصبو الفكر، وتتألب عليه حكومات غير رشيدة سياستها الظلم والاستبداد والقسوة والإرهاب بلا مبرر. ثم جاء الاستعمار الغربي بدهائه السياسي المريع، وبعمله على التفرقة العنصرية وبثِّ روح الفُرقَة والعداوة الدينية، وصحيح أيضاً أن وطننا ورث هذا الوضع الطبيعي وضع الأقلية المنكمشة بديانتها المنفردة في التطهير والغفران والخلاص مما كان سبباً في إثارة كوامن الأغلبية. ولكن نقول إنه بالرغم مما كان ومما هو كائن، فنحن نواجه عصراً جديداً بلا شك فالحكومة آلت إلى أيد أمينة وعقول نزيهة مستنيرة وقلوب رحيمة وضمائر حرة غير مستعبدة للمطامع، ودخلت السياسة في عصر من أزهى العصور التي مرت عليها البشرية من فجر قيامها حتى الآن إذ يتحكم فيها العقل والضمير الإنساني، وتوجِّهها أهداف ثابتة كريمة[٨] خالية من التعصب والتحيز وتمر في تجارب متلاحقة سريعة للتنقية والتصفية على أساس من الخبرة القديمة المؤلمة، وعلى هدى الواقع الحي وما تشير إليه الإحصائيات من مستقبل متعطش إلى العمل والجهد، وبوحي التجارب التي مرت بها الدول الأخرى، والغرض الوحيد الذي

---

(٨) يتضح ذلك من بند حرية المواطن وعدم التمييز لأي سبب كما ينص الدستور على ذلك.

تتمناه الدولة أن تُسعد شعبها وتعبر به العوز الذي يهدد حاضر العالم والمحنة التي تنتظره.

لذلك أصبح على الكنيسة أن تنبِّه المواطن المسيحي أن يفيق ويعي دوره الخطير في هذه الحركة الكبرى، بأن يعمل شيئاً في قلبه، يعمله في الخفاء كوصية المسيح حتى يستطيع أن يواجه النور بالنور، والوطنية بوطنية مثيلة، والأمانة والنزاهة والاستنارة والحرية والوعي والعمل المنتج الدائب بقلوب تصفح عن الإساءة، وضمائر لا تدين، ولا تحقد، ونفوس راضية شاكرة على القليل ليزيد، وعلى الألم ليخف وينكمش، فلا تحسب للمسيء إساءته، ولا للظلم ظلمه، ولا للحاقد حقده، ولا للجائر جوره، بل نشكر الله على كل حال ومن أجل كل حال وفي كل حال حتى «يضيء نوركم هكذا قدام الناس» (مت ٥: ١٦).

متى تُرفع عقدة الاضطهاد؟

إذا شعر الإنسان بعقدة الاضطهاد واستقرت فيه فهي ستظل باقية مهما أوتي من مقدرة على كبتها وإخفائها. وهي ستظل تعمل أيضاً فيه لتهدَّ من كيانه النفسي والإيماني مهما أخذ الإنسان من حقوق ومهما حصّله من الفوارق.

إذن فما الحل؟

نود لو ننبِّه ذهن القارئ إلى الكلمات القليلة القادمة فهي تحمل الحل للمشكلة: نقول اقبل الاضطهاد! ونقول أيضاً اقبله. اقبلْه من كل قلبك، اقبله دون سبب، وبدون نقاش، اقبله بشكر كوصية المسيح، وحينئذ

سترى كيف تحدث المعجزة الكبرى إذ ستحس في الحال وفي أعماقك أنك لست إنساناً مضطهداً وأنها مجرَّد نِسَب وقياسات، وأنك أفضل حالاً من كثيرين مثلك تماماً في المواهب وفي كل شيء.

***

احترس!! إنه عدم الشكر هو الذي يمهد في القلب طريقاً لعقدة الاضطهاد لتسكن وتملك وتسود وتخرب النفس والجسد، والإيمان أيضاً. أين إيماننا وأين ما تصليه الكنيسة في صلاة الشكر؟

⊙ إنه الطمع في ثروات الدنيا وفي الأموال والكرامات والوظائف هو الذي يجعلنا نقيس أنفسنا بجارنا أو بزميل لنا فنضطرب ونغضب ونحقد ونحسد ونثور وتتوتر أعصابنا فنمهد في القلب طريقاً للشيطان ليملك ويحكم ويفسد ويخرب الحاضر والمستقبل أيضاً! أين المسيحية وأين روح الزهد في أباطيل العالم؟

إنها الأذن غير المتدرِّبة على التفريق بين الأخبار التي تبني والأخبار التي تهدم، وغير المميِّزة لسماع الحق من الاستماع إلى الأضاليل والإشاعات الكاذبة المهوَّلة. **تندس أقاصيص الاضطهاد وحكايات المظالم وتدخل في القلب لتبدد سلامه وتشيع فيه الاضطراب والبلبلة بعد الرضا والشكر** وينعكس الاضطراب والقلق على حياة الإنسان وسلوكه وعمله وحديثه وهكذا يسري الوباء من مريض لسليم. أين الكنيسة والتعليم الصحيح وامتحان الأرواح؟

ولكن هل يوجد اضطهاد حقيقي؟

لقد أصبحت الشكوى من الاضطهاد وباءً يعم جميع الناس بأديانهم وطبقاتهم وفئاتهم ومهنهم المختلفة، حتى أصبح من العسير أن نحصل على عينة نقية من الاضطهاد نستطيع أن نضعها في مستوى الاضطهاد الحقيقي الذي يتكلّم عنه الإنجيل. فاضطهاد الطبقات بعضها لبعض، واضطهاد العناصر البشرية، واضطهاد المستعمرين للوطنيين، واضطهاد الفئات والمهن، واضطهاد الأغلبيات للأقليات. كل هذه وغيرها من حركات الاضطهاد التي يموج بها العالم كله، إذا وقع المسيحي تحت نيرها يستحيل طبعاً أن ينسب ذلك إلى مسيحيته.

كذلك هناك أنواع أخرى كثيرة للاضطهاد، ولكن يلزم أن نتبين أي نوع من الاضطهاد نجوز، لئلا تكون مجرَّد معاكسات، أو لئلا نكون مخدوعين نلقي اللوم على غيرنا ونحن سبب اللوم وعلته، أو لئلا نستثقل ثمن الإيمان ونكون نحن سبب الغرامة لا الإيمان.

أنواع من الاضطهاد غير ديني:

+ فهناك مثلاً أنواع للاضطهاد هي في الواقع حالات خاصة يقع تحتها المسيحي وغير المسيحي كأن يكون رئيس العمل مثلاً رجلاً مريض النفس محباً للرشوة أو يميل إلى الممالأة أو الفتنة أو القسوة لمجرد حب الانتقام ويكون هذا كله بسبب عقد نفسية ورثها هو عن حالات مماثلة أو عن ظروف خاصة، وهذه بطبيعة الحال ستؤدي إلى سوء المعاملة وسيخص المسيحي نصيباً منها حتماً.

فهل يمكن أن يُحسب هذا اضطهاداً بسبب الدين؟ كلا لأن

الاضطهاد من أجل اسم المسيح يلزم أن تكون دوافعه في نفس صاحبه واعية كل الوعي واضحة كل الوضوح بحيث يباشر الاضطهاد عن قصد وإصرار.

إذن فاضطهاد مثل هذا هو مجرَّد تألم بالظلم وهو محسوب لدى الله، ولكنه ليس اضطهاداً «لأن هذا فضل إن كان أحد من أجل ضمير نحو الله يحتمل أحزاناً **متألماً بالظلم**» (١بط ٢: ١٩).

+ وكذلك هناك أنواع أخرى من الاضطهاد كثيرة ومتعددة كاضطهاد أصحاب العاهات أو ناقصي الخلقة، أو ذوي الوجوه الذميمة، أو ذوي الحِرَف الحقيرة، أو ذوي الأسماء الشاذة غير المألوفة مسيحية كانت أو غير مسيحية، أو ذوي الملابس الغريبة كما يصنع الرعاع مع الأجانب أو كما يصنع الصبية وأحياناً الكبار بالقسوس إذا صادفوهم في الطريق. كل هذه الحالات وما يماثلها لا يمكن اعتبارها حالات اضطهاد موجه ضد المسيحيين فدوافعها جميعاً تخلو من عنصر الاضطهاد المُبيَّت، بل هي مجرَّد معاكسات ولا تزيد عن كونها عدم ثقافة العامة وتأخرهم الاجتماعي الشديد.

+ ومن ناحية أخرى يلزم تصفية جميع حالات الاضطهاد التي تحدث بسبب سوء تصرف المواطن مع رئيسه أو زملائه كأن يكون قليل المجاملة قليل البشاشة، كما تلقَّن في تعليمه الديني المتزمت، فلا يستطيع أن يؤدِّي واجبه الاجتماعي في المناسبات العامة والخاصة، كثير التهرُّب من ملاقاة الزملاء والرؤساء رديء الهندام، معتزاً بنفسه وأخلاقه، غير

متعاون، متعصباً لدينه، أو عقيدته، غير متجاوب في تفكيره وتصرُّفه.

إن سلوك أي مواطن - بأي دين كان - مثل هذا السلوك سيؤدي حتماً لا إلى اضطهاده فحسب بل إلى زعزعة كيان العمل وإضعاف روح الإنتاج وخلق حالة توتر دائم في العمل مما سيؤدي حتماً إلى محاولة التخلُّص من مثل هذا الإنسان. ونحن لا يمكن أن نعفي المواطن المسيحي من تحمل مسئولية مثل هذا الاضطهاد الواقع عليه بكاملها مضافاً إليها تحمُّل تبعة الضرر والخسارة الناتجة من تصرفه بمثل هذا السلوك. ولكننا نعود فنلغي كلمة ''الاضطهاد الديني'' هنا، فدوافعه اجتماعية محضة.

+ على أنه توجد **حالات واضحة من الاضطهاد** يحتملها المواطن من أجل الحق عامة أو من أجل الأمانة على أموال الدولة أو لشرف بلاده يضطر فيها المواطن أن يسلك سلوكاً مستقيماً يكون نتيجته افتضاح الغش أو الاختلاس أو المؤامرة ويتسبب هذا في معاقبة الآخرين وحينئذ يبدأون في المؤامرة ضده والكيد له. ليس الدافع هنا اضطهاداً من أجل الدين ولكن الدافع ملوث وخليط وعسير أن نستخرج منه اتجاهاً دينياً.

ما هي حالات الاضطهاد الديني؟

أما الحالات التي يحدث فيها الاضطهاد من أجل الدين فهي التي تحدث بوحي التعصب المباشر وبسبب ضيق التفكير الديني وتلويث الوعي الروحي عند المتدينين سواء كانوا رجال الدين أو من عامة الناس رؤساء كانوا أو زملاء أو أصحاب أعمال. وما نظن أن الدولة في وضعها الديموقراطي البرلماني تستطيع أن تساير مثل هذا الوعي السقيم بل

ولا يمكن أن تحمله أو تتحمل مسئوليته.

ولكن تدخُّل الدولة في مثل هذه الحالات ما نظن أنه يكفي، بل إن التوجيه والكلمة العليا بل والأحقية الأولى هنا هي لكبار علماء الإسلام من رجال الدين والشخصيات الوقورة التي لها في قلوب العامة كل التبجيل والاحترام. هؤلاء لابد أن يكونوا مع المحبة والسلام واستتباب روح المودة على ميعاد. ونحن نؤمن أن الدولة الديموقراطية لابد قادمة على عصر تحتاج فيه لكل يد عاملة ولكل يد كاتبة ولكل عقل مفكر. بل سيأتي العصر الذي فيه نسمو بالشعور المتحيز للأسرة والعصبية الضيقة والتكتل الطائفي والتعصب المذهبي والديني بوجه عام حتى يستوعب الفرد معنى الإنسانية في صورة أعلى. والديموقراطية هي التجربة الأساسية للوحدة إذ تتجمع فيها أديان دون أن تكون هذه موضع تحزب أو تناحر أو تعصب.

+ والمطلوب منا كمسيحيين أن ننزل بمبادئ المسيح في ميدان الاحتكاك العملي والفكري، فإذا لم تتزكى المحبة وتعلو فوق كل تيارات البيئة وتغلب كل المقاومات الطبيعية والمصطنعة فباطلة هي مسيحيتنا.

⊙ متى يُعدَّل الوعظ في الكنائس لنرى جيلاً يمد يده بالمحبة والسلام ولو كان خدُّه ملطوماً؟

⊙ متى تُعدَّل المناهج كلها في كل بيت وفي كل ناد وترتفع الحواجز

الاضطهاد الديني الحقيقي:

لو جعلنا حكمنا على الاضطهاد الديني مبنياً على الدوافع الباعثة على الاضطهاد ودققنا في الدوافع حتى نأخذ فقط بالدوافع الواعية والمصرَّة في مباشرتها للاضطهاد المُبيَّت عن قصد وسبق إصرار لوجدنا بشهادة التاريخ أن ذلك النوع من الاضطهاد لا يحدث إلا في حالتين:

١ - في حالة الدولة التي كانت تتخذ من العقيدة الدينية إطاراً محدَّداً لشكل الدولة وهي الدولة الدينية.

٢ - وفي حالة العصور المظلمة التي مرت على الكنيسة بسبب انحراف الرؤساء الدينيين. وفي الحالة الأخيرة كانت السلطة الكنسية هي التي تقوم بالاضطهاد ضد بعض المسيحيين. وتاريخ أوروبا في العصور الوسطى هو أبلغ شاهد على ذلك.

(٨)

الكنيسة والتعصب الديني

لا يمنع أن يكون الإنسان متمسِّكاً بإيمانه وعقيدته، بل إن هذا ضرورة، لا من حيث المفهوم الديني فحسب بل ضماناً لسويَّة النفس البشرية وصحتها وثبات جهادها وسلامة منطقها.

والرجل السويُّ المتمسك بإيمانه وعقيدته أفضل من الذي يستهتر بالقيم الدينية على كل وجه.

⊙ **ولكن ما أبعد الفرق بين التمسك السويِّ بالدين والتعصب له!** ولكن كيف يكون التمسك السوي بالدين، وكيف ينشأ التعصب له؟

⊙ الدين إما أن يوصل إلى معرفة الحق وإما لا يوصِّل.

⊙ فإذا وصل الإنسان بالدين إلى معرفة الحق نال الحرية «تعرفون الحق والحق يحرركم» (يو ٨: ٣٢).

⊙ وإذا نال الإنسان الحرية صار سيداً للمواقف مميزاً للأفكار والأعمال والأرواح، يحكم على الأمور بلا تحيز ولا خطأ. «وأما (الإنسان) الروحي فيحكم في كل شيء، وهو لا يُحكم فيه من أحد» (١كو ٢: ١٥).

⊙ والحرية تعني أن لا يعمل الإنسان شيئاً قط مضطراً، بل لأنه يعرف

الصالح يعمله بلا اضطرار، ولأنه يعرف الباطل لا يعمله ولا يتوقف عن هذا حتى بتهديد الموت!

⊙ والحرية تعني أن لا يتعبَّد الإنسان لأوهام الناس وخرافات الأسلاف لأن عين الحرية التي تنظر بها كل شيء وتفحص بها كل شيء هي معرفة الحق!

⊙ علامة الحرية الحقة هي أن يكف الإنسان عن فعل الخطية لأن عمل الخطية دلالة العبودية «مَنْ يعمل الخطية هو عبد للخطية» (يو ٨: ٣٤).

⊙ لذلك فإن الذي يبلغ الحرية الحقة أو حرية الحق هو الذي يكون تمسكه بالدين تمسكاً سوياً.

أما الذي لم يبلغ الحرية بمعناها الحقيقي فقد أخفق في معرفة الحق، وكل ما تبقى له هو منطوق الإيمان وأوامره ونواهيه، يؤمن بها بلا وعي، تتحكم فيه كما يتحكم السيد في العبد، لا يستطيع أن يحكم في شيء بل يُحكَم فيه من كل أحد.

⊙ وكل مَنْ ليس حراً فيما يؤمن به، يتعصب له مضطراً. وكل متعصب للدين أقرب ما يكون إلى الخطية لأنه مسلوب الإرادة!

⊙ ولا علاج للتعصب إلا أن نزيد له المعرفة الصحيحة لعله يبلغ إلى الحق الذي هو الله وحينئذ فقط يبلغ الحرية «وحيث روح الرب هناك حرية» (٢كو ٣: ١٧).

١ - والمسئول الأول عن التعصب الديني هم القادة والمعلمون الذين لا يراعون المستوى النفسي للمتديِّن والذين يلقنونه الحقائق الإيمانية دون نقاش. وهذه الصورة الصارمة في التعليم تظل هي رائدهم ومَثَلهم

الأعلى مع أن المسيح لم يعلِّم هكذا، بل كان يستخدم الحوار في تعليمه حتى مع أعدائه فكان يبني سامعيه، ويفتح أمامهم آفاق المعرفة، ويكشف لهم الحق المخفي وراء كل مَثَل أو تشبيه أو معجزة.

ولكن يلزم أن نعترف بالحقيقة المُرَّة وهي أن معلِّمي الدين كثيراً ما ينقصهم المعرفة والحق وبالتالي تنقصهم «حرية مجد أولاد الله» (رو ٨: ٢١)، لذلك يخرج تعليمهم أكثر شبهاً بتعليم الكتبة والفريسيين منه إلى المسيح.

وهذا النوع من التعليم أي التلقين الإجباري بالفهم فقط لا يصلح للمسيحية إطلاقاً، فسرُّ المسيحية كله متوقف على مقدار استعلان الحق الإلهي في قلب الإنسان. والحق يرشد الإنسان إلى السلوك وإلى العبادة والصلاة وكل عمل روحي آخر في حرية رزينة ناجحة، دون أن تكون العبادة أو الصلاة أو أي عمل روحي آخر مُلْزِماً للإنسان بصورة فرض يعمله الإنسان مضطراً أو مجبراً، المسيحية لا تعرف هذا النوع من العبادة.

الإنسان في المسيحية فوق السبت وفوق كل طقس آخر كما يقول الكتاب: «السبت إنما جُعِلَ لأجل الإنسان وليس الإنسان لأجل السبت» (مر ٢: ٢٧).

ولكن ليس معنى هذا أنه يمكن للإنسان المسيحي أن يعيش بدون طقس أو ترتيب كنسي أو يخترع لنفسه طقوساً أو ترتيباً آخر. كلا، إن المعنى ينصبُّ على كيفية أدائنا للعبادة والطقوس وكيفية سلوكنا في الحياة عموماً. فالمسيحي يعرف ما يعمله قبل أن يعمله، والمعرفة الصحيحة تجعله يصل إلى الحق الإلهي، والحق يجعل الإنسان يباشر أعماله الروحية

دون أن يصير عبداً لها.

⊙ كل عمل روحي نعمله سواء كان عبادة أو طقساً أو صلاة بدون أن نعرف قيمته الروحية ويستعلن لنا الحق الذي فيه، سوف نعمله باضطرار، **وكل عمل روحي يُعمل تحت اضطرار هو عبودية للأعمال الروحية وليس عبادة الله.**

⊙ وأي إنسان يباشر الأعمال الروحية تحت اضطرار أي دون أن يكون قد بلغ الحرية المسيحية في أدائها فإنه يتعصب لها تعصباً أعمى ولا يطيق المناقشة فيها، لأنها تكون قد ملكت عليه حياته وقد تَعبَّد لها فاستعبدت هي إرادته ومنطقه وأبعدته عن الحق وحرمته من الحرية «حرية مجد أولاد الله» (رو ٨: ٢١).

لذلك فإن المتعصبين هم أبعد الناس عن الحق وأقل الناس فهماً للحرية بل إنهم يحسبون أن الحرية ضد الدين.

الكتبة والفريسيون كانوا متعصبين للديانة اليهودية، وشاول كان إمام المتعصبين لا عن ادعاء ولكن حقيقة، فقد كان مدققاً في الفروض، ملتزماً بالواجبات، مواظباً على الصلوات، أو كما يقول هو عن نفسه إنه كان «من جهة البر الذي في الناموس بلا لوم» (في ٣: ٦).

ولكن لم ينفع كل هذا بل حُسب عليه، وبعد أن استُعلنت له المسيحية باتساعها اللانهائي بحريتها التي تبلغ إلى «أعماق الله» (١كو ٢: ١٠)حُسب عنده كل ما كان يؤديه عن تعصُّب أنه خسارة ونفاية.

+ «لأن الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله» (١كو ٢: ١٠).

هذا النوع من التعصب ممكن أن نسميه التعصب بالتلقين أو بالفهم

الناقص وهو نوع سائد ولا خطر منه.

٢ - **أما المسئول الثاني عن التعصب فهم المتعصبون أنفسهم وذلك في طريقتهم لتقبل المبادئ الإيمانية.** فإذا استخدم الإنسان عاطفته فقط في قبول الحقائق الإيمانية دون أن يستخدم قوى الحكمة والتمييز في تفهمها وفي التعمق في معانيها وفي استكشاف الحق الذي فيها، فإن العاطفة تبدأ تعلو موازينها شيئاً فشيئاً حتى تسيطر على قوى الفهم أيضاً وتطغى على قوى التمييز وتلغي عمل الحكمة ولا يتبقى للإنسان إلا منطوق مبادئ إيمانية + عاطفة، وهذا أخطر أنواع التعصب الذي فيه لا يتورَّع "المؤمن" أن يقترف الضرب والقتل أيضاً ليحيا الإيمان ولتسود عاطفته.

وهناك نوع آخر من التعصب لا هو عن فهم ولا هو عن عاطفة ولكن عن ادعاء. وأدعياء التعصب يلجأون إلى الظهور بمظهر المتعصبين للدين المدافعين عن الإيمان حتى ينالوا بعض الحقوق وسط الجماعة أو يحتفظوا بمظهر المتدينين لمركبات نقص خاصة عندهم!

وهذا النوع يعيث في الأرض فساداً وهم مصدر الفتاوي الدينية الجاهلة، الذين يروِّجون الإشاعات عن الاضطهاد حتى يثبتوا وجودهم كمدافعين عن الدين وأغلبهم يطمحون لمراكز الكهنوت ويدفعون غالياً للحصول عليها لأنها أكثر وظيفة أمناً يتستَّرون فيها.

وهذا وباء في الكنيسة يُفسد جوهرها ويُظهرها بمظهر لا يتناسب إلا مع كنيسة العصور الوسطى في الغرب، ولا يمكن أن تُشفَى منه الكنيسة إلا إذا ارتفع مقياس الوعي فيها.

٤ - آخر الأصناف وأهمها في رأينا هو **تدريس التعصُّب!!**

نعم، تدريس التعصُّب!!

ويكفي أن يعرف القارئ المبدأ الذي يقول به بعض المعلِّمين «لا تضع يدك إلا في يد مَنْ يؤمن بمبادئك»! ليأخذ صورة نسبية ليكفيه التوجيه في التعليم الديني عند البعض بهذا المبدأ. وطبعاً يقصد الرائد أو المعلِّم أن يمنع طالب الدين من الاختلاط لا بأصحاب الأديان الأخرى فقط بل يتعداها إلى منع الاختلاط أو المصادقة للذين هم من دينه أيضاً بل والذين من عقيدته **وإنما يكونون مختلفين فقط في المبادئ!**

أن يلقَّن الشاب أو الصبي روح العزلة والانفصال والانكماش بهذه الصورة أمر خطير على المواطن. إن مثل هذا الاتجاه في التعليم الديني سيجعله حتماً شاباً منعزلاً منفصلاً غير متجاوب مع مجتمعه وشعبه وبلده يأنف من زملائه ويتعالى على مرؤوسيه.

وشاب مثل هذا ينشأ كثير الحنين لبيئته التي تربى فيها أكثر من حنينه نحو مجتمعه، فيفقد كل عاطفة نحو خدمة بني وطنه إذ يشعر في نفسه أنه غريب عنهم بل غريب عن وطنه نفسه، كما علموه عن واجب الشعور بالغربة بطريقة منحرفة! مثل هؤلاء الشباب يكون كمثل الذي يظل متعلقاً بأمه بعد زواجه فتفسد حياته الزوجية ويخفق أن يكون زوجاً وتظل عالقة فيه خصال "العيال". وهكذا يتحمل الوطن وحده عبء هؤلاء الشباب الممسوخين ويغرَّم عن سوء تربية هو منها بريء!

وتشخيص هذه الحالة هو عدم صلاحية برامج التربية وسوء التوجيه والرقابة المنزلية عند بعض الأسر التي تحض أيضاً على الانعزال وتنهى عن مصادقة الناس.

(٩)

الكنيسة وصلتها بالحروب

الكنيسة ليس لها أبداً أن تصلّي من أجل نصرة الجيوش ولكن عليها أن تصلّي من أجل السلام.

الكنيسة لا تقرُّ الحرب لأي سبب كان، مهما كان، فالحرب عندها ليست وسيلة مشروعة للتفاهم ولكنها لا تملك أن تمنعها.

الكنيسة لا تقر الاعتداء بأي سلاح وبأي وسيلة حتى باللسان، ولا تقر رد الاعتداء لأنها تسلمت من الرب نفسه كيف أسلم ذاته لأعدائه فاكتسبهم أحباء.

الكنيسة لا تقر الحرب كمبدأ، ولكنها لا تستطيع أن تتجاهلها حينما تقع كما قال الرب: «وسوف تسمعون بحروب وأخبار حروب، انظروا لا ترتاعوا **لأنه لابد أن تكون هذه كلها**» (مت ٢٤ : ٦).

الكنيسة تجتهد لكي تمنع قيام الحروب بالصلاة والوساطة والتوسل والدعوة للسلام ما أوتيت من جهد وكرامة ونعمة في أعين الملوك والرؤساء، فإذا وقعت الحرب فلا مناص من أن تُسلِّم بها كحالة واقعة، ولا تمنع أولادها من أن يبذلوا حياتهم من أجل الوطن. إنها تُشيِّعهم إلى ميدان القتال بالصلاة كمسافرين فقط ثم تظل تصلي من أجل السلام!

إنها لا تطلب نصراً لأحد على أحد، فالكل عندها إخوة وهي أُم،

وكأم تظل تتوسل إليهم أن يكفوا، وكعروس لإله المحبة لا تستطيع أن تخاصم أحداً أو تقف عدوّاً لإنسان.

ولكنها لا تخاف أبداً من الذين يقتلون الجسد، كقول الرب، من أجل ذلك سهل عندها وغير ذي خطر أن يموت أعز أولادها ليفدي الوطن لأنها لا تخشى عليهم إلا من الخطية وعقابها الأبدي.

الحرب خطية الدولة المتحاربة لا خطية الجنود المتقاتلة!

والمتسبب في الحرب يحمل وحده وزرها، وكل ما يتخلف عنها، كقول الرب: «لا يمكن إلا أن تأتي العثرات **ولكن ويل للذي تأتي بواسطته**» (لو ١٧: ١).

الذين يموتون في الحرب ليسوا عندها شهداء إيمان، ولكنهم شهداء للوطن، يخلدهم التاريخ ولكن لا تخلدهم السماء إلا على قدر إيمانهم وأعمالهم.

تظل الكنيسة في أثناء الحرب مركزاً للسلام وميناءً هادئاً لراحة كل النفوس المتعبة، تخرج من عزلتها - يخرج الأسقف والكاهن والشماس، لتفتقد الكنيسة الأرامل الكثيرات اللاتي فَقَدن أزواجهنَّ في الحرب وألوف الأيتام الذين أصبحوا ولا عائل لهم، تأوي الذين بلا مأوى، تطيِّب القلوب الحزينة، تشجع النفوس الخائرة، تبثُّ روح الشجاعة في المتخاذلين وتعظ بالصبر والشكر والاحتمال، ترصد الأموال من قُوتها لتخدم بها المحتاجين كما يعلمنا القديس أنبا شنوده في القرن الخامس كيف آوى في ديره جميع العائدين من الأَسْر بعد نصرة الجيش المصري وتولَّى تمريضهم وإطعامهم من مؤونة الرهبان!

الجزء الثاني

الطائفية والتعصُّب

الطائفية والتعصُّب

الطائفية تعني أن يستيقظ في الإنسان وعي استقلالي بجنسه أو دينه أو عقيدته تحت دوافع صحيحة أو غير صحيحة، تجعله يسلك مسلكاً سلبياً تجاه مَنْ لا يشاركه في جنسه أو دينه أو عقيدته، ثم تحت إلحاحات هذه الدوافع والإثارات إما ينطوي على نفسه ليتفادى المصادمة، وإما ينطلق يهاجم ويصادم – بوعي أو بدون وعي – المصدر الذي يستشعر عدوانه والذي يثير قلقه باستمرار.

على أنه في حالة الانطواء على النفس لابد أن يحدث التنفيس عن هذا الشعور السلبي ولو في محيط الطائفة التي ينتمي إليها، فيستبد بإخوته أو حتى في نفسه حيث ينتهي إلى صراع داخلي وتذمر وقلق بدون سبب ظاهر.

هذا التعريف للطائفية يبقى ناقصاً إلى أن نرده إلى أسبابه النفسية الأُولى الأصلية التي تبدأ منذ الطفولة المبكرة جداً، ولا نبالغ إذا قلنا – حسب تحقيقات علماء النفس – أنه يبدأ منذ الشهر الثامن في عمر الطفل حينما يبدأ يفرق بين أهله وبين الغرباء فيجفل وينفعل انفعالاً مريعاً عند رؤيته للغرباء فيستميت في التمسك بأمه سعياً وراء الأمان.

وغني عن البيان أن الأم هنا – كمصدر للأمان النفسي – ستُنقل بعد ذلك لتصبح هي البيت أو الأسرة، ثم بعد ذلك الكنيسة أي العقيدة.

فالطائفية إذن ملاذ للأمان النفسي، وكل مَنْ لا يتبع الطائفة يصير في الحال عدواً يهدد الأمان النفسي، هذا شعور طفلي موروث.

حينما يرى الطفل إيذاءً يحل بأمه يثور وينفعل ويهاجم، الطفل هنا يحس بأن مصدر أمانه النفسي في خطر، الطفل إذن لا يدافع عن أمه بل يدافع عن أمانه وسلامه الخاص. وعلى نفس النمط يتم الانتقال من الدفاع عن الأم إلى الدفاع عن الأسرة ثم عن الكنيسة، والحقيقة أن الدفاع في كل هذا هو دفاع عن النفس.

الطفل يبدأ عملية الانتماء والتوحد مع أمه ثم مع أسرته ثم مع كنيسته، غريزة الانتماء والتوحد والتكتل عمليات نفسية هي العناصر الأساسية التي تشكل النوازع الطائفية لضمان أمن النفس وسلامها، ومع الطائفية في كل مراحلها ينمو التعصب حتماً. لذلك فأول تعصب يمارسه الإنسان يكون تجاه أمه، ثم بعد ذلك أسرته ثم كنيسته. ولا فرق بين التعصب للأم أو الأسرة أو الكنيسة فالسبب واحد هو سلامة النفس وضمان أمنها.

وإن كان الإحساس الطائفي أو التعصب يتفاوت بين إنسان وآخر أو بين بيت وآخر أو بين جماعة وأخرى، فهذا التفاوت يتناسب في عنفه وشدته مع الإحساس أو الوهم أو الخوف من تهديد سلام النفس وأمانها سواء بالنسبة للفرد أو الجماعة، لذلك فإن أقوى سلاح لإثارة النعرة الطائفية أو التعصب بين الأفراد والجماعات هو التأثير عليهم لإدخالهم في

مجال الإحساس بضياع الأمان والسلام النفسي.

وليس من الضروري أن تكون وسائل الإثارة دينية، فقد ينجح الزعماء المثيرون أو العملاء المغرضون في إثارة الإحساس بضياع الأمان والسلام النفسي عن طريق إثارة القلق الاقتصادي، فمجرد أن تصل الجماعة إلى الإحساس بتهديد مستقبلها الاقتصادي يكون ذلك كافياً بإيقاظ الشعور الطائفي والإحساس بالتعصب الديني. التعصب الديني هنا وليد تهديد اقتصادي، فمثلاً يكفي أن يُقال بين الأقباط إن هناك خطة مدبرة للقضاء على مستقبل الأقباط الاقتصادي حتى يستثار الشعور الطائفي والإحساس بالتعصب إلى ذروته!

ونستطيع أن نقول إن سلاح التهديد الاقتصادي في إثارة الطائفية أقوى بكثير من سلاح التهديد الديني الخالص. فارتداد الألوف عن العقيدة قد لا يسعف المسئولين لتحريك روح الجماعات الدينية لإيقاظ الشعور الطائفي أو الإحساس بالتعصب للعقيدة أو الدين، في حين أن مجرَّد التلميح عن الخطر الاقتصادي يمكن أن يكتِّل الشعب كله ويرفع حرارته إلى القمة. هذا يفسر لنا بصورة واضحة أن تكوين الروح الطائفية والتعصب على أي حال مرجعه بالأساس إلى الإحساس بتهديد أمن النفس وسلامها سواء على المستوى الفردي أو الجماعي.

موقف الروح المسيحية من الطائفية والتعصُّب:

أول درس في المسيحية هو أن يكفر الإنسان بنفسه، كلمات المسيح واضحة بهذا الشأن: «مَنْ وجد حياته يُضيعها، ومَنْ أضاع حياته من

أجلي يجدها» (مت ١٠: ٣٩). كذلك فالمسيح يفرق بين سلام تستمده النفس لذاتها من العالم الذي تعيش فيه: من الأهل، من الأصدقاء، من لقمة العيش التي تؤمِّن راحتها، وبين سلامها الخاص الذي يعطيه بالروح من فوق، من العالم الآخر: «سلاماً أترك لكم، سلامي أعطيكم، ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا» (يو ١٤: ٢٧).

واضح أن المسيح هنا يزعزع إيماننا بمصدر أمننا الذي نستمده من العالم ومن الناس ومن الأهل ومن توفُّر لقمة العيش «في العالم سيكون لكم ضيق» (يو ١٦: ٣٣)، «العالم يمضي وشهوته» (١يو ٢: ١٧)، و«تأتي ساعة فيها يظن كل مَنْ يقتلكم أنه يقدِّم خدمة لله» (يو ١٦: ٢)، و«أعداء الإنسان أهل بيته» (مت ١٠: ٣٦-٣٧)، «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة من فم الله» (لو ٤: ٤). وبذلك يصير هو وحده مصدر أمننا وسلامنا.

المسيح هنا ينقض أسس الطائفية والتعصب:

الطائفية والتعصب يقومان على تأمين سلام الذات وبقائها، المسيح جاء ليزعزع أمن الذات وسلامها وبقائها جملة وتفصيلاً، ومهما كان اضطرابنا وضيقنا فنحن في سلام معه، ومهما بلغ تهديد الفناء والموت فنحن موجودون وقائمون به حتى في الموت وبعد الموت!

الطائفية والتعصب يقومان على أساس العداوة أو على أساس وجود أعداء حقاً أو وهماً. المسيح جاء ليهدم هذا الأساس ويلغيه سواء كان حقاً أو وهماً: «أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، صلوا من أجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم» (مت ٥: ٤٤-٤٥). فإذا رُفِعَت العداوة

نهائياً من قلب الإنسان ووجدانه تجاه أي إنسان أو جماعة، ماتت الطائفية وانطفأ التعصب إلى الأبد. المسيح هنا مصدر المحبة، والمحبة لا تسقط أبداً. فالمحبة تلغي الفُرقة، تلغي الانقسام، تلغي التحزُّب، تجعل «التي ليست محبوبة محبوبة والذي ليس شعبي شعبي» (رو ٩: ٢٥). فإن كانت الذات الإنسانية مصدر الطائفية ومصدر التعصب، فالمسيح مصدر المحبة والوحدة الجامعة. المسيح بديل كامل للذات البشرية المخادعة.

مع الطائفية توجد المقاومة، ومع التعصب توجد النقمة.

الإنسان الطائفي حتى ولو كان تقياً متعبداً أو حتى كاهناً، تجده يحلل المقاومة لتأمين قيام طائفته وسلامها لأنه يحس في غيابها بزعزعة أمنه وسلامه[9]، وهكذا ينسى المسيح الذي «كحَمَل صامت سيق إلى الذبح» (إش ٥٣: ٧) وينسى الذي قاله المسيح «لا تقاوموا الشر بالشر» (مت ٥: ٣٩) والذي قيل عنه «أنه لما شُتم لم يكن يشتم عوضاً، وإذ تألَّم لم يكن يُهدِّد بل كان يسلِّم لِمَنْ يقضي بالعدل» (١بط ٢: ٢٣). الطائفي لا يحسُّ إلا بذاته، ووقت الضيقة لا يفكر إلا كيف يؤمِّن سلامه وسلام طائفته التي يتعلَّق سلامه بسلامها وأمنه بأمنها!

الإنسان المتعصب مهما بلغ من القداسة والوقار لا يتوانى عن أن يصب جام غضبه ونقمته على مَنْ يظنهم أعداء طائفته أو حتى مَنْ يعتبرهم خارجين عن طائفته، لأن التعصب يسخِّر القداسة والوقار لتأمين الذات الطائفية مما يتهددها.

---

(٩) الدفاع الروحي الرزين عن الإيمان والعقيدة يتنافى مع الروح الطائفية والتعصب لأن ثمر البر يُزرع في السلام (يع ٣: ١٨).

وهنا يبرز الحديث الذي دار بين يوحنا والمسيح كبرهان واضح على خطورة التعصب:

⊙ «يا رب أتريد أن نقول أن تنزل نار من السماء فتفنيهم (أي السامريين) كما فعل إيليا أيضاً» (لو ٩: ٥٤) فالتفت يسوع وانتهرهما وقال:

⊙ «لستما تعلمان من أي روح أنتما. لأن ابن الإنسان لم يأتِ ليهلك أنفس الناس بل ليخلِّص» (لو ٩: ٥٥ و٥٧).

هنا محاولة جادة وعجيبة لتسخير قوَّة الله لخدمة الروح الطائفية، المسيح هنا يشجبها من أساسها. وكذلك منظر شاول وهو ذاهب إلى دمشق بتوصيات لقتل المسيحيين باسم الحق والدين وكرامة الله الواحد العظيم! أو منظره بينما كان واقفاً يحرس ثياب قاتلي استفانوس وهو «راضياً بقتله» (أع ٨: ١)، هذه الروح التعصبية الطائفية البغيضة هي التي ورثتها الصهيونية الحديثة التي لا تزال تحلِّل القتل باسم الله والدين.

ولكن هؤلاء التلاميذ أنفسهم رأيناهم بعد ذلك كيف خلعوا التعصب لما لبسوا المسيح، وتحوَّلوا من قتلة إلى مقتولين حباً في المسيح المصلوب وحباً لأعداء الصليب!! **يستحيل أن نلبس المسيح والتعصب**، يستحيل أن نكرم الصليب ونبغض أعداء الصليب بآن واحد، لأن رسالتنا العُظمَى هي المصالحة. لذلك فإن لم يكن لدينا الاستعداد لمغفرة كل مَنْ يصلبنا فكذابون نحن إن قلنا إننا مصلوبون للعالم أو أننا أحباء المصلوب.

المسيح لم يُصلب من أجلي أنا وحدي ولا من أجل الأبرار، والأحباء فقط «لأن المسيح إذ كنا بعد ضعفاء مات في الوقت المُعيَّن

لأجل الفجار، فإنه بالجهد يموت أحد لأجل بار، ربما لأجل الصالح يجسر أحد أيضاً أن يموت ولكن الله بيّن محبته لنا لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا» (رو ٥: ٦ و٨).

الصليب إذن ليس لي أنا وحدي بل هو للجميع، ولكل الخطاة حتى ولأعداء الصليب. لأن المسيح صُلب من أجل العالم كله! ولا يزال يقدّم صليبه لكل إنسان. لذلك فالمسيحي لا يقبل العداوة، لا يقرُّها، لا يؤمن بها، إنه يتخطاها بموته.

فماذا؟ هل لا أدافع عن الصليب؟ أو هل لا أتعصّب لحق الإنجيل؟

بلى: أنا أدافع عن الصليب بموتي أنا وليس بموت الآخرين أبداً، لأني بذلك سأحيا إلى الأبد. أنا أتعصب لحق الإنجيل بأن أُضيِّع ذاتي من أجل المسيح والإنجيل وليس بأن أضيع حياة الناس من أجل ذاتي أنا أو من أجل طائفتي. لأني إن أَضعْتُ حياتي سأجدها في المسيح مع الكنيسة كلها وكل من أموت عنهم.

ذهب مرة أحد الإخوة يستفتي أحد الآباء المشهورين بالتقوى عن أمر فتاة حملت خلسة من شاب لا يدين بدينها، فأفتى هذا الأب ضمن ما أفتى بقتل الجنين وهو ابن أربعة أشهر. فتوى تقشعر لها النفس. هذا التعصب بلغ الذروة في خداع النفس فقد حلّل القتل باسم الله وحفظاً للكرامة الطائفية! هنا الروح الطائفية تُكرّم ويُهان المسيح، هنا ينكّس الصليب لتعبُر عليه البشرية المخدوعة بكرامتها.

ذهب أخ غير مسيحي إلى أحد الآباء المشهورين بالتقوى يستفتيه عن رغبته في اعتناق المسيحية، وشكا أن زوجته وأولاده لا يوافقونه على هذا.

فأفتى هذا الأب بتطليق الزوجة وطرد الأولاد. فتوى تقشعر لها النفس، فالإنجيل هنا يُنقض صراحة[١٠] وموازين التعليم المسيحي تُقلب من أساسها. هنا إلحاح الشعور الطائفي يطغى على حق الإنجيل ويطمس معالم الرحمة الإنسانية ويُصوِّر الطلاق وتشريد الأولاد كأنه خدمة للمسيح. هنا تُطرح الوصية على الأرض وتطأها الطائفية ليزداد عددها فتؤمِّن سلامها من الضياع! الزوجة المطلّقة هنا والأولاد المشردون لا يستثيرون عطف ذلك الكاهن الذي أفتى تلك الفتوى كأنهم أعداء، كأنهم ليسوا بشراً، وكأن المسيح عدوهم أو كأن المسيح لم يُصلب من أجلهم كما صُلب من أجله. الطائفية هنا أعمت الروح المسيحية عن رسالتها وعن المسيح المصلوب من أجل العالم كله، وعن التعليم الذي قدمه لنا بولس الرسول من أجل هذا الشأن بالذات في (١كو ٧: ١٢-١٧).

فماذا؟ ألا نقبل إنساناً يطلب أن يدخل حظيرة المسيح؟

بلى نقبله، ولكن ليس على أساس أن يكبِّد غيره الثمن بل يتكبده هو. فيحتمل كل إهانة وتعيير وحرمان من زوجته وأولاده حتى باحتماله وصبره واتضاعه يشهد للمسيح. إن كان مجيئه للمسيح صادقاً وإن كان دخوله الحظيرة من الباب الضيق حقاً.

فرق أن يدخل إنسان جديد إلى حظيرة المسيح مرفوضاً من العالم متألماً حاملاً صليبه كسيده، وفرق أن يدخل إنسان الحظيرة وهو متعدٍّ ظالم.

الأول مسيحي، والثاني طائفي.

---

(١٠) الإنجيل سمح للمؤمن حديثاً بالمسيح في العصور الأولى أن يحتفظ بزوجته غير المسيحية بدافع الرحمة (١كو ٧: ١٢-١٧).

الطائفية توقُّفٌ على الطريق المؤدي إلى المسيح المصلوب من أجل الجميع! هي قصور عن بلوغ معنى الفداء الكامل الذي فيه ينبغي أن لا يُحرم إنسان قط من صلواتنا وتضرعاتنا وحبنا، مهما كان معادياً لإيماننا أو مخالفاً لرأينا أو عقيدتنا أو مُسيئاً لمصالحنا. لأني لم أدفع ثمناً لفدائي حتى أستحقه دون غيري، الدم المسفوك على الصليب سُفك مجاناً على ذمة كل إنسان جاء إلى العالم وسيأتي، ولا فضل لإنسان على إنسان، الكل يأخذ مجاناً ولا فضل لِمَنْ يأخذ كثيراً على مَنْ يأخذ قليلاً. قطرة واحدة تشفي أمراض العالم وتمسح ذنوب كل بني البشر، والذي لم يأتِ بعد فذنبه عليَّ أنا، فأنا لم أسوقه بحبي وصلاتي ودموعي وموتي.

الطائفية مرض ديني ومرض اجتماعي بحد سواء.

فإن كان سعينا إنجيلياً حقيقياً لخلاص كل العالم وتلمذة الشعوب للمصلوب من أقصى الأرض إلى أقصاها فلماذا الطائفية؟ إن كانت عقيدتي أكثر حقاً فلأكن أنا أكثر بذلاً، أكثر فدية، أكثر موتاً عن ذاتي، وبالتالي أكثر موتاً عن أعدائي. مَنْ ذا الذي يقول إني أستطيع أن أثبت أحقية عقيدتي بانتفاخي؟ **مَنْ ذا يقول إني أستطيع أن أُبشِّر العالم بتعصبي؟**

ألم يعطنا بولس الرسول صورة للإيمان الواثق المتسع المترفق حينما قال: «صرت لليهود كيهودي لأربح اليهود، وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس، وللذين بلا ناموس كأني بلا ناموس مع أني لست بلا ناموس الله بل تحت ناموس المسيح لأربح الذين بلا ناموس. صرت للضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء، صرت للكل كل شيء لأخلّص على كل حال قوماً. فإني إذ كنت حراً من الجميع

استعبدت نفسي للجميع لأربح الأكثرين. وهذا أنا أفعله لأجل الإنجيل لأكون شريكاً فيه»[١١].

إذن فطائفيتي تحول دون بلوغي قلوب الناس وبالأخص الضعفاء، تعصبي يمنع تجلي المسيح الذي في عقيدتي، الذي في قلبي.

النور الذي فيَّ ينبغي أن يوضع على منارة، أن يُنادَى به من على سطوح، أن يخرج خارج السياجات، حيث المرفوضون والمُحتَقَرون والمنبوذون من عقيدتي وإيماني، الذين ليس لهم مكان في ولائم المفتخرين.

طائفيتي أخفت مسيح «نور العالم» عن العالم، جعلته مسيح أقلِّية، مسيحاً خائفاً منكمشاً يتقي الناس ويتحاشى المظالم ويهرب من صليبه.

طائفيتي وهي متخذة فرصة كوسيلة لتأمين سلامي وأمني ومصالحي الاقتصادية خدعتني وأنهت على كل أمل في انفتاحي على العالم وانفتاح العالم عليَّ فاختفى مسيحي عن العالم وعني.

فماذا؟ *أليس من حلٍّ؟*

الطائفية - كتكتل بشري - غريبة عن المسيح، لا علاقة لها البتة مع الروح والروحيات، الطائفية مرض اجتماعي يعترض النمو النفسي للفرد والجماعة. فالطائفية في بذرتها الأولى ملاذ للأمان النفسي وتأمين السلام الذاتي يبدأ بها الطفل مع أمه ثم أسرته، ثم وهنا الخطأ الفادح - مع كنيسته (أي عقيدته). ولكن الكنيسة ليست ملاذاً للأمان النفسي بل موضعاً لصلب الذات، ليست هي مكان تكتل لنتلافى فيه خسارة دنيوية

(١١) ١كو ٩: ٢٠-٢٢، ١٩ و٢٣.

أو نضمن فيه قيام وجود مشترك يضمن مصالح أرضية، بل على النقيض تماماً، ففي الكنيسة نتعاهد أن نخسر كل شيء من أجل المسيح ونحسب كل ما في العالم نفاية وخسارة من أجل فضل معرفته وحبه.

نحن نتكتل في الكنيسة حول صليب المسيح. حول دم مسفوك لنتعاهد أن نموت معاً، ومعه عن كل إنسان في العالم مهما كان ذلك الإنسان.

الطائفية كتكتل بشري امتدادها الوحيد بعد الأسرة ليس مكانه الكنيسة بل الوطن، الوطن وحده يمتص الطائفية، أما الكنيسة فلتبقَ إلى الأبد مكان انطلاق من العالم، مكان تنازل عن الذات، مكان استبدال استقرار دنيوي باستقرار سماوي وسلام جسدي بسلام روحاني.

الأب متى المسكين

يُطلب من:

دار مجلة مرقس

القاهرة: ٢٨ شارع شبرا - تليفون ٢٥٧٧٠٦١٤

الإسكندرية: ٨ شارع جرين، محرم بك - تليفون ٤٩٥٢٧٤٠

أو عن طريق موقع الدير على الإنترنت:

www.stmacariusmonastery.org

أو عن طريق مكتبة الدير

إذا عُدنا إلى التاريخ نرى أنه على مر العصور كانت الكنيسة ناجحة في تأدية رسالتها بقدر تمسكها بحدود اختصاصها، غير متأثرة بالظروف الخارجية سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية. ففي أحلك أيام التعصُّب والاضطهاد الذي بلغ إلى استشهاد اثنى عشر ألف نسمة في يوم واحد، وفي أعصب ظروف الاستبداد السياسي والعقائدي أيام حكم بيزنطة، بل وفي أشد أيام المجاعات والأوبئة لم تتخلّف الكنيسة عن تأدية رسالتها وتكميل البشارة بالإنجيل لدعوة الخطاة إلى التوبة وربح أبناء جدد للآب السمائي.

في هذا الكتاب يوضح المؤلف أساس التعليم الاجتماعي في الكنيسة من جهة رسالة الكنيسة الأساسية، وحدود علاقتها بالدولة، متميزة في هذا عن رسالة المواطن المسيحي وعلاقته بالوطن والدولة.

٤٢

الثمن جنيهان